الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم

- كلية الأدب العربي .
- قسم دراسات أدبية
- تخصص أدب قديم

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة ماستر تخصص أدب قديم

تحت عنوان

دراسة كتاب الغربة و الحنين في الشعر الاندلسي

لـ - فاطمة طحطح-

من اعداد الطالبتين:

- ✓ بن فاطمة شيماء
- ✓ سماعيل رشيدة

الأستاذ المشرف:

د/ قديري جميلة

السنة الجامعية: 2021/2020

ترحم

اللهم اجعل أبي ممن تقول له لنار

اعبر يا مؤمن فان نورك أطفأ ناري

و تقول له الجنة اقبل يا مؤمن فقد

اشتقت اليك قبل أن أراك

رحمك الله يا أبي و جعلك من أهل

الجنة

بن فاطمة شيماء

اهداء

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين

أهدي هذا العمل الى:

من ربتني و أنارت دربي، الى أغلى انسان أمي حفضها الله و أطال في عمرها...

الى من عمل بكد في سبيلي و علمني معنى الكفاح و أوصلني الى ما أنا عليه أبي الكريم رحمه الله .....

الى أخواتي.....

الى كل عائلة بن فاطمة.....

الى جميع الأصدقاء و نعمة الأصدقاء.....

.... الى كل الأساتذة

بن فاطمة شيماء

ترحم

اللهم اغفر لابي و ارحمه و عافه و اعف عنه و اكرم نزله و وسع مدخله و اغسله بالماء و الثلج و البرد و نقه من الخطايا كما ينقي الثوب الابيض من الدنس اللهم أجعل قبره روضة من رياض الجنة و لا تجعله حفرة من حفر النار اللهم مد له في قبره مد بصره اللهم انزل على قبره الضياء و النور و الفسحة و السرور اللهم افسح له في قبره و نور له فيه برحمتك يا أرحم الراحمين

سماعيل رشيدة

اهداء

اهدي هذا العمل المتواضع الى امي التي احيا لها و اعيش من اجلها.....

.....الى ابي الذي ضحى من اجلي رحمه الله

..... الى اخوتي اعز الناس الي ....

..... و الى كل من عائلتي عائلة سماعيل

..... الى كل من اصدقائي الاحياء و الاعزاء

..... الى كل من امدني بالروح المعنوية و ساعدني في هذا المشوار من قريب و من بعيد..... و الى كل من هم قريبون الى قلبي

..... و الى كل اساتذتي الكرام

سماعيل رشيدة

شكر و تقدير

الحمد لله الذي نفتح بحمد الكلام والحمد لله الذي حمده أفضل ما جرت به الأقلام سبحانه والصلاة والسلام على نبينا وحبيبنا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين وبعد.....

لا يسعني إلا أن نتقدم بوافر جزيل الشكر إلى أساتذتنا الكرام .....

الذين ساهموا في تكويننا طيلة هذا المسار.....

وأخص بالذكر الأستاذة المشرفة قديري جميلةالتي لم تبخل علينا بالمساعدة وتقديم نصائحها و توجيهاتها

قائمة المحتويات

اهداء

ترحم

شكر و تقدير

قائمة المحتويات

المقدمة

الفصل الأول: بطاقة فنية للكتاب

1. الدراسة الظاهرية

- الاسم الكامل للمؤلف..... ص 05
- الوصف الخارجي للكتاب..... ص 05
- المصادر و المراجع.....ص 06

2. الدراسة الباطنية

- التعريف بالمؤلفة (فاطمة طحطح) .....ص 08
- شرح عنوان الكتاب..... ص10
- أهمية و قيمة الكتاب..... ص 12

الفصل الثاني: دراسة محتوى الكتاب

1. شعر الغربة و الحنين..... ص 15

2. غربة المكان و الزمان..... ص 32

قائمة المحتويات

3. اشكالية الزمن في شعر ابن خفاجة .....ص 70

4. بحثا عن البديل..... ص 85

خاتمة

قائمة المصادر و المراجع

ملخص

المقدمة

من أهم الدوافع التي جعلتنا نختار هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي" للدكتورة" فاطمة طحطح" ليكون محور موضوع مذكرة نيل شهادة الليسانس في اللغة العربية و آدابها، لأنه كتاب نفيس و تحفة علمية بامتياز، مفيد لكل باحث و طالب في مجال النقد الأدبي، و من أهم الدافع ايضا لأن مؤلفه الدكتورة "فاطمة طحطح" يعد واحدا من أعظم و من أبرز العلماء و الباحثين و النقاد و العرب، الذين دخلوا التاريخ من بابه الواسع، نظرا لإنجازاته العظمية و كتبه الكثيرة النفيسة في الادب و النقد، حيث أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات، اضافة الى هذه الدوافع نجد النقص الظاهر في المكتبات العربية التي تفتقر الى البحوث و التقارير المنهجية التي تتناول مواضيع النقد.

و من خلال دراسة الكتاب و المواضيع التي يجب أن نتطرق اليها فيه، تتبادر الى أذهاننا عدة تساؤلات و التي سنجيب عنها بأذن الله، و من أهم تلك لتساؤلات نجد: من هو المؤلف؟ و ما هي محتويات هذا الكتاب؟ و ما منهجه؟ و كيف تبرز أهميته؟

و حتى نقوم بالإجابة على هذه الأسئلة تتبعنا الخطة التالية:

الفصل الاول حمل عنوان دراسة خارجية للكتاب، تطرقنا فيه الى التعريف بالمؤلف و دراسة عنوان كتابه و حجم الكتاب و غلافه و تاريخ نشره ور قم طبعته، و دار نشره، و غير ذلك من الأمور المتعلقة بالجانب الخارجي للكتاب، و يليه الفصل الثاني الذي بعنوان دراسة محتوى الكتاب، حيث قمنا فيه بدراسة محتوى الكتاب، و اهداف الكتاب، ثم الخاتمة.

و بالنسبة للمنهج الذي اتبعناه في دراسة و تلخيص هذا الكتاب هو المنهج الوصفي النظري، نظرا لمتطلبات المذكرة، و قد اصطدمنا أثناء انجازنا لهذا البحث

بعدة عوائق و التي ابرزها: ندرة الكتب الخاصة بمادة المنهجية، لأن هذا البحث عبارة عن دراسة منهجية خالصة و خاصة المصادر و المراجع و التي تحتوي مادتها على موضوع على جواد الطاهر و كتابة مناهج البحث الأدبي، و قد حاولنا قدر المستطاع الاحاطة بالعناصر الموضوع بهدف جعل البحث شاملا وافيا. رغم تلك الصعوبات.

و ختاما نحمد الله سبحانه عز وجل أن وفقنا في انجاز هذا البحث حيث انعم علينا بنعمة الدراسة و سلامة العقل و البدن، كما لا ننسى أستاذنا المشرف الدكتور: ....الذي كان لنا خير المشرف و خير الناصح و خير الموجه، حيث أنه لولا رعايته و توجيهاته و نصائحه، ما استطعنا انجاز اذ البحث المتواضع، و رغم انشغالاته الكثيرة لم يبخل علينا بالنصح و الإرشاد.

و في الأخير نرجو أن نكون قد وفينا البحث أغلب شروطه و محتوياته، و الله ولي التوفيق.

الفصل الأول

بطاقة فنية للكتاب

بطاقة فنية لكتاب: الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي

1-الدراسة الظاهرية :

الاسم الكامل للمؤلف : فاطمة طحطح.

عنوان الكتاب :الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي (أطروحة).

عدد الصفحات :367 صفحة.

حجم الكتاب : 17/24.

دار و مكان النشر :دار البيضاء، الرباط .

الطبعة: الأولى 1993.

الوصف الخارجي للكتاب: لون الكتاب من حيث الواجهة الأمامية (أزرق).

2- الدراسة الباطنية:

عدد الفصول :ثمانية فصول.

المصادر و المراجع:

(المصادر)

- الاحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، تحقيق عبد الله عنان، ط02، القاهرة، 1973.
- أخبار و تراجم أندلسية، مستخرجة من معجم أبي طاهر السفلي، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963.
- اختصار القدح المعلى، لابن السعيد، تحقيق محمد بنتاويت و سعيد أعراب، الرباط، 1978.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح رشيد رضا، ط04، مصر، 1947.

- البديع في وصف الربيع، أبو الوليد الحميري، نشر و تصحيح هنري يريس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1940.
- التوابع و الزوابع، ابن الشهيد، تصحيح و تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1967.
- الحلل الموشية، منسوب لابن الخطيب، نشر السيد بشير القورمي، تونس، 1329هـ.
- الحماسة لأبي عبادة البحتري، عناية و ضبط الأب لويس شيخو، ط02، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.
- درر السمط، لابن الآبار، تحقيق عبد السلام الهراس و سعيد أعراب، تطوان، مطبعة كريماديس، 1972.
- ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

(المراجع)

- أبو المطرف بن عميرة المخزومي، محمد بنشريفة، منشورات المركز للبحث العلمي، مطبعة الرسالة، 1966.
- الادب و الغرابة، عبد الفتاح كليطو، بيروت، دار الطليعة، 1982.
- الأعلام، للزركلي، ط03، بيروت، لبنان، 1996.
- البلاغة الواضحة، علي الجارم، القاهرة، دار المعارف، 1961.
- بناء القصيدة العربية، يوسف حسين بكار، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة، 1997.
- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، احسان عباس، ط02، دار الثقافة، بيروت، 1996.

- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف و المرابطين، احسان عباس، ط02، دار الثقافة، بيروت، 1996.
- تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ط01، دار التنوير للطباعة النشر، 1985.
- دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، أحمد المتوكل، دار البيضاء، دار الثقافة، 1986.
- الرمزية في الأدب العربي، درويش الجندي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1958.

2/ الدراسة الباطنية:

التعريف بالمؤلفة (فاطمة طحطح):

تعد الدكتورة فاطمة طحطح أستاذة الأدب الأندلسي بجامعة محمد الخامس بالرباط، وأستاذة زائرة تخصص الأدب العربي بجامعة غرناطة بإسبانيا، من الباحثات القلائل المتخصصات في الأدب الأندلسي، إذ ناقشت رسالتها الجامعية في السنة الجامعية 1985/1984 في جامعة محمد الخامس بالرباط، خصصتها لموضوع "الشعر في عهد المرابطين بالأندلس والمغرب"، أتبعتها من نفس الكلية بدكتوراه الدولة في الآداب في يونيو1991 في موضوع "الغربة والحنين في الشعر الأندلسي"، صدرت طبعته الأولى لاحقا سنة 1993 عن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، سلسة أطروحات ورسائل.

البعض من قطافها:

التجربة الدينية في شعر ابن الخطيب –ابن حزم الاندلسي الشاعر – الشعر

الاندلسي في تجاربه الإنسانية الكبرى – صورة المرأة في الشعر الاندلسي– القصائد الثغرية والزجل الاندلسي أية علاقة...وغيرها من الدراسات.

ولأنها امتلكت قناة العبور بين اللغتين العربية والإسبانية، فقد منحتها اقتدارا كبيرا على التنقل بين الضفتين، وإضاءة خيوط الربط بين الحضارتين، وامتلكت أدوات النبش والقراءة بل ومكنتنا من إيصال صوتنا ورؤيتنا إلى مجتمع إسباني جمعنا به تاريخ مشترك وفرقتنا القراءات التي كثيرا ما جانبت المنهج العلمي، وسقطت في حبائل الأيديولوجيا. يكفي ان نتحدث عن تجربتها المتميزة في المجموعة البحثية التابعة لجامعة غرناطة والتي تحمل عنوان " مدن اندلسية في ظل الاسلام "، وهي العنصر العربي الوحيدبين جماعة من المستعربين الغربيين. وتقوم هذه المجموعة كل عام بإصدار كتاب عن مواضيع تهم الأندلس، ومن بين الدراسات التي قدمتها أستاذتنا ضمن هذا المشروع العلمي الكبير، نذكر:

- "المصادر القديمة والحديثة للأدب الاندلسي في العهد النصري" 1997
- الشعر الاندلسي في القرن الخامس عشر– ظواهر تيماتية ورمزية" 1998.

وهناك أبحاث اخرى كثيرة بالإسبانية قدمتها الأستاذة في إطار لقاءات او مشاريع علمية أخرى مختلفة:

- "التصوف بالأندلس بين القبول والرفض من خلال كتاب " العواصم من القواصم" لابي بكر بن العربي، صدرت ضمن كتاب جماعي لأعمال المؤتمر الدولي الرابع لدراسات التشريع الإسلامي...
- "ابن الخطيب وهاجس الرحلة نحو التطهر والخلاص" – "مظاهر التسامح في رحلة بنيامين بن يونة الأندلسي..."

شرح عنوان الكتاب:

من الحقائق المؤكدة أن الأدب العربي و منه الشعر قام على غرض انساني واسع ممتد و هو التلاؤم بين الأديب و واقعه الروحي و الاجتماعي، أو تنافرهما، و يلي بعد ذلك شعو الانتنماء الذي يعقبه الرضا أو الغربة التي يعقبها الحنين و الشوق.

إذا حاولنا تتبع معنى كلمة غربة واغتراب في اللغة، وما اشتق من الجذر غرب (غ ر ب) مثل تغرب واغتراب...، فسوف نجد أن العرب استخدموها في لغتهم وشعرهم . فقد ورد معنى الغربة في المعاجم العربية، والتي حمل من خلالها دلالة ترتبط بالمكان والانتقال منه.

يذكر ابن منظور في لسان العرب معنى (غرب) (غ ر ب) ، أن الغرب : الذهاب والتنحي عن الناس، و غرب عنه يَغْرُبُ غربًا، و غرب ، وأَغْرَبَ، وأَغْرَبَهُ، نحّاه، و الغربة و الغرب :البعد والنوى، ويقال :أغربته وغربته إذا نحيته وأبعدته، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني إذا لم يحصن، وهو نفيه عن البلاد.

فبالرجوع إلى جذر كلمة" الحنين "وهو الفعل الثلاثي الصحيح" حَنَنَ "الذي طرأ عليه التضعيف لغير زيادة، فصار حَنَّ؛ وتصريفه حنَّ يَحنُّ حنينًا، جاء في لسان العرب" :حَنَنَ :الحَنّا نُ :من أسماء الله عز وجل .قال ابن الأثير :الحّنان : الرحيم بعباده.

مفهوم الغربة:

جاء في لسان العرب في مادة (غرب) " الغربة: و الغرب: الذهاب و التنحي عن الناس، و غرب و أغرب و غربه و أغربه، نحاه، ناحه و التغريب: النفي عن

البلد، و غرب : بعد و التغرب: البعد، و الغربة و الغرب: النزوح عن الأوطاب و الاغتراب.[1]

و الغربة ظاهرة قديمة، رافقت المجتمعات البشرية منذ بدء الخليفة، و لكنها كانت غبرة واضحة المصطلح و المفهوم، بينما اتخذت لها صورا معقدة في العصر الحديث، بل و صارت من أكثر المفاهيم اثارة للجدل بسبب التعريفات الكثيرة التي وضعت لها. [2]

الحنين:

ان كلمة "حنين" و مشتقاتها و مسمياتها ذات ايحاءات عاطفية، تعبر عن شفافية و رهافة في الاحساس، و تحمل في ثناياها الاشفاق، و تدور حول البكاء و الطرب.[3]

أي الشديد البكاء والطرب، وقيل :هو صوت الطرب أكان ذلك عن حزن أو فرح . والحنين: الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان، حنَّ إليه يحنُّ حنينًا فهو حانٌّ.

من ذلك يتضح لنا أن الحنين يدل على :صوت، وطرب، وشوق، ورحمة، وعطف .هذا من الناحية اللغوية.

أما من الناحية الاصطلاحية، فالحنين معناه :الشوق وتوقان النفس مع الطرب والتنغيم . وهو يكشف عن مدى معاناة الإنسان في ديار الغربة بعيدًا عن وطنه، فالحنين يرضي شغف النفس، ويشبع حب الناس للأوطان.

[1] فتيحة دخموش، تجربة الغربة و الحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي، شهادة ماجستير، كلية الآداب و اللغات، جامعة منتوري، قسنطينة،بدون سنة، ص 12

[2] بوقرورة، عمر، الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، باتنة، الجزائر- مركز منشورات جامعة باتنة، انجز طبعة على مطابع عمار قرفي، ص 13.

[3] السعيد قوراري، الحنين الى الديار المقدسة في الشعر الأندلسي، شهادة ماجستير، كلية الآداب و العلوم الانسانية و الاجتماعية، قسم اللغة العربية و آدابها تخصص أدب عربي قديم، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2011/2010، ص 11.

فشعر الغربة و الحنين في الأندلس من الظواهر التي تسترعي نظر الباحث في الشعر الاندلسي، و هي ظاهرة شيوع الشعر بين العرب الأندلس على اختلاف طبقاتهم، فاشعر في الأندلس لم يكن وقفا على الشعراء وحدهم، و انما شاركهم في نظمه، و الى حد الاجادة أحيانا، كثيرون من أهل البلاد، على اختلاف أهوائهم و مشاربهم، و بعدما بينهم و بين الأدب، من حيث أعمالهم و تخصصاتهم، و قلما خلت ترجمة أندلسي من شعر منسوب اليه، سواء أكان المترجم له أميرا أو وزيرا، أو كاتبا، أو نحويا، أو فيلسوفا، أو طبيبان أو غير ذلك.

أهمية و قيمة الكتاب:

الحنين والغربة فن شعري أصيل يرتبط بالحياة، فهو من الفنون التي تعنى بتصوير جوانب من الحياة، وتكشف عن الكثير من الحقائق التي يغلفها التاريخ، وهي مثال صادق لمرحلة تحمل في طياتها أحداثًا سياسية، وفتنًا داخلية، امتدت إلى أكثر من قرنين ونصف القرن. فأهمية هذا الكتاب تكمن في أن:

- هناك اتفاق في المعنى اللغوي بين مفهوم الغربة والاغتراب، الذي حمل معنى النوى البعد والنزوح عن الوطن، كما اتفق مع المعنى الاصطلاحي من حيث الدلالة على النزوح من مكان إلى آخر، والبعد عن المكان.
- أن لشعر الحنين جذورًا مشرقية قديمة، ممتدة من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر الأندلسي، إلا أن هذا الغرض ازدهر وتوسع في عصر سيادة غرناطة كمًا وكيفًا حتى بدأ ظاهرة تميز هذا العصر.
- عاشت مملكة غرناطة حياة سياسية صاخبة سادها القلق والاضطراب، وعمتها الفتن والفوضى من جهة، والحروب الخارجية من جهة أخرى، ومع

ذلك ازدهرت الحياة الفكرية في هذا العصر، وازدهر شعر الحنين– في هذه الظروف السياسية والاجتماعية المضطربة –كما ازدهرت موضوعات أخرى كالرثاء والجهاد والزهد والاستصراخ على حساب موضوعات أخرى كالغزل، والوصف والمديح وغيرها.

- صدر موضوع الغربة والحنين عن عاطفة صادقة واحساس مرهف، ونفوس معذبة تجرعت مرارة الغربة، فكان حنين بعض الشعراء إلى الوطن من أصدق ما قيل في هذا الاتجاه، وقد اتسم في معظمه بسلامة الأسلوب، وبساطة المعاني والألفاظ، وروعة التصوير.
- إن نظرة نقدية في الشكل الفني تبين لنا أن الشعراء في هذه الفترة كانوا قادرين على إحكام بنية قصائدهم الشعرية، لا سيما في موضوع الحنين ، كما تظهر إجادتهم في نظم المقطعات الشعرية التي انتشرت انتشارًا واسعًا في عصرهم، وخاصة في موضوع الحنين.

الفصل الثاني

دراسة محتوى الكتاب

المبحث الأول: شعر الغربة و الحنين

1. دوافع الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي

1.1 الدوافع الموضوعية:

يحدثنا المؤرخون أن الأندلسيين لم يعرفوا نعمة الاستقرار، و لم يذوقوا امن الوحدة أبدا بعد انهيار سلطة الخلافة الأموية و العامرية بالأندلس، فكأن الماضي حلما لم يستفيقوا منه إلا بعد اندلاع الفتنة في قرطبة، و بعدها لم يتعودوا إلا على النكبات، و أهوال الفتن و الانقسامات داخليا و خارجيا.

لقد هزت هده الفتنة حسب تعبير ابن حيان شعور الأندلسيين بالاستقرار. فمن سلم من القتل اتخذ الهجرة و الرحيل حلا، فغادر قرطبة جماعة لا يستهان بها من علمائها، و أدبائها فيهم ابن الشهيد و ابن حزم و ابن زيدون و ابن دراج و غيرهم كثيرا...و صمتت الأصوات الشعرية و كسدت سوق الأدب لقد طوحت روح الفتنة بشاعر كابن دراج بعيدا عن مدينته، فاكتوى نيرانها التي دمرت استقرار عائلته.و لقد صور ابن بسام، نقلا عن ابن حيان، شناعة هده الفتنة، و ما أحدثته من اهتزاز و اضطراب في نفوس الشعراء وقد توهجوا بمدائحهم إلى المستعين، قائلا: " بأن شعراء الدولة العامرية قد نسجت عن أفواههم و محاربهم العناكب، أيام الحرب و الفتنة، واشتدت فاقتهم، و جمت طباعهم، و كانوا كالبزاة الفدة الجياع انقضت لفرط الضرورة على الجرادة، فلم يبل صداهم، و لا سد خلتهم لاشتغاله بشأنه و اشتداد حاجة سلطانه..."[1]

لقد نتج عن هده الفتنة مادة غزيرة في رثاء المدينة و التصوير غربة الشعراء و تصوير حنينهم إلى معاهدهم هناك، و أزمانهم التي خلت في ظل الأمن و الاستقرار

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي(أطروحة)، كلية الآداب بالرباط، ط الأولى، 1993، ص 44.

و اجتماع شمل الأحباب سواء عند ابن زيدون، أو عند ابن الشهيد، أو عند ابن حم و بالخصوص عند ابن دراج أكثر الشعراء اكتواء بنار هده الفتنة و معانات لأهوال لقد فجرت هده الفتنة الكثير من قصائد الغربة و الحنين، سواء عند هؤلاء الشعراء أو عند غيرهم و لقد تم كل دلك كما قال محمود مكي في رمشة عين. فقد توالت الأحداث و النكبات في سرعة مذهلة فبمجرد ما تتيسر الغلبة لبعض الطامعين في الحكم، حتى ينازعه طامع أخر أو يقتل بين ليلة و ضحاها و الكل يعيش ليومه فقط، لا يدري ما سينكشف عنه الغد أو ما تخفيه مفاجآت المستقبل ثم كانت النتيجة الحتمية لتلك الفتنة التي تمثلت في الانقسامات الداخلية التي عرفتها البلاد في ظل ملوك الطوائف. الشيء الذي أدى إلى تشجيع أطماع المسيحيين حيث ازدادت سطوتهم أكثر من ذي قبل ووجدوا في تلك الانقسامات التي كانت تنخر في كيان البلاد، فرصة سانحة للانقضاض على بعض القواعد و المدن الأندلسية الواقعة على الثغور، فسقطت مدن كبريشتر(456)، ثم طليطلة(478) في عهد ملوك الطوائف، نتج عن دلك قصائد عديدة من طرف الشعراء يرثون المدن و يبكون غربة أهلها، بعد أن صاروا في قبضة المسيحيين، الشيء الذي أدى بدوره إلى تدخل المرابطين، بعد أن برزوا كقوة على ساحة الأحداث.[1]

و ما استتبع دلك من القضاء على ملوك الطوائف و أسرهم للرمز الشعري الأندلسي: المعتمد بن عباد وما حدث في خضم تلك الأحداث، من قتل وأسر وفتن هوجاء كل دلك كان له أثره البعيد، في انتثار شمل الشعراء الدين كانوا يتحلقون حول ملوك الطوائف خاصة حول المعتمد بن عباد كابن اللبانة و ابن حمديس و ابي بحر بن عبد الصمد و غيرهم كثيرا حيث أخذوا يشكون من غربتهم و يبكون ضياعها و

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 45.

بعدهم عن أوطانهم و يحنون في لهفة إلى أزمانهم الماضية في ظل الاستقرار و النعمة.

أما في العهد الموحدي فقد كثرت الأشعار التي قيلت في الغربة و الحنين حيث كانت الأوضاع السياسية المضطربة خاصة في أواخر العصر وما حدث من صراع على السلطة داخل المغرب بين الناصر و المأمون أو بين ابن مردنيش و الموحدين و فتن شرق الأندلس كانت كل تلك الأحداث تجبر قسما كبيرا من الشعراء إلى الهجرة و ترك الوطن سواء إلى المغرب أو إلى المشرق خاصة كابن سعيد المغربي الذي هاجر إلى مصر و استقر بها و حازم القرطاجني الذي هاجر من بلده مرسية إلى تونس و ابن عميرة المخزومي و ابن جبير و غيرهم كثير... و قد صدر من كل هؤلاء الشعراء قصائد في الغربة و الحنين تفيض لوعة و تفجعا على الوطن و حنينا جارفا إلى المعاهد الماضية و الزمن الموالي حتى غدت قصيدة الغربة و الحنين محور كثير من الأغراض واندست في المدح والاستصراخ و الغزل و غيرها من الموضوعات، و هكذا سارت الأمور في مجراها الحتمي لينحصر الوجود العربي في أخر المطاف في رقعة صغيرة من جنوب البلاد في مملكة بني الأحمر في هدا العهد اتسع الخرق على الراقع، ووقع الأندلسيون بين نارين: نار الزحف المسيحي الخارجين، و نار الفتن الداخلية و يستعرض ابن الخطيب بائسهاب جانبا من هده الفتن و الدسائس و المؤامرات الفظيعة، التي عرفتها هده المملكة خاصة في أواخرها، سواء في الإحاطة ،أو أعمال الإعلام و قد كان مصرعه المفجع ضحية تلك الفتن و المؤامرات و الدسائس هكذا اخذ الوجود الأندلسي يتقلص يوما بعد يوم، الشيء الذي هجرة واسعة إلى المشرق و في الإحاطة كما في الكتيبة الكامنة ذكر لكثير من الأدباء و الشعراء الدين رحلوا واستقروا نهائيا بالديار المغربية أو المشرقية أما فرارا مت التقلبات السياسية، و بحثا عن الاستقرار و الأمن أو تأدية لفريضة الحج...

ولقد ازدهرت أصوات الغربة و الحنين في هدا العهد أيضا. ويكفي أن نذكر ابن الخطيب نفسه وابن الصباغ وابن خاتمة وابن زمرك ويوسف الثالث ملك غرناطة وابن جزي الكلبي و غيرهم كثيرا لكن ما يسترعي الانتباه في هدا العهد أن الحنين لم يقتصر على الزمان و المكان الأندلسي دائما بل توجه وجهة أخرى فلم تعد صورة الأندلس تشرق دائما كما كانت في الماضي لدى الشعراء بعد أن أوشك الوجود الأندلسي أن يصبح في خبر كان و لم يعد هناك من رمز يتشبث به الأندلسيون، فاتجهوا وجهة أخرى صوب ديار المقدس يلتمسون حدوث معجزة يبحثون عن البديل للواقع المتردي.[1]

2.1 دوافع نفسية اجتماعية:

1.2.1 الدوافع النفسية:

ان الاحداث الخارجية و الاضطرابات الداخلية، لم تكن الباعث الوحيدة على ازدهار شهر الحنين لدى الأندلسيين، فناك عوامل أخرى، نفسية خاصة بالمجتمع الأندلسي، فهو مجتمع يميل الى الانغلاق و التوقع على الذات و الأندلسي ميال بطبعه الى الالفة، يكره الابتعاد عن وطنه، و ترك أهله و أي تغيير في نمط حياته، يعرضه لهزة نفسية، و قلق مستمر.[2]

إن الأحداث الخارجية، و الاضطرابات الداخلية لم تكن الباعث الوحيد على ازدهار شعر الغربة و الحنين لدى الأندلسيين فهناك عوامل أخرى نفسية خاصة بالمجتمع الأندلسي فهو مجتمع يميل إلى انغلاق و التقوقع على الذات و الأندلسي ميال بطبعه إلى الألفة يكره الابتعاد عن وطنه و ترك أهله و أي تغير في نمط حياته يعرضه لهزة نفسية و قلق مستمر. و قد ذكر المقري بعض ثوابت العقلية و

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي(أطروحة)،المرجع السابق، ص ص 46-47.
[2] المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس، ج01، ص 205.

طباع المجتمع الأندلسي، منها دلك الميل إلى تقديس الماضي و الأسلاف و السعي إلى المحافظة على المتوارث المعهود و هدا لتقديس للماضي و السعي نحو المحافظة عليه بر بإلحاح من خلال كتب التراجم و السير الغزيرة التي ألفها الأندلسيون و هي إن دلت على شيء فإنما تدل على علو المعارف و ازدهارها عند مسلمي اسبانيا كما قال بالنثيا و ليس هدا فقط ففي نظرنا تدل للإضافة إلى دلك على امرين اخرين:[1]

- **أولهما:** اعتزاز الأندلسيين بعلمائهم، و السعي إلى تخليد أثارهم لدرجة أن من ليس أندلسيا كما يدرج في باب خاص من هده التراجم و هو باب الغرباء ولا يشفع له اسمه احمد أو محمد بإدماجه مع الأندلسيين بنفس الاسم
- **ثانيهما:** هاجس خفي بالخوف يقلقهم و شعورهم بأن وجودهم سيصبح في خبر كان ذات يوم انطلاقا من الفتن و الأحداث التي سبقت الإشارة إليها فكأن الإكثار من التراجم لعلمائهم و تعداد أدبائهم يعد تخليدا لدلك الماضي و انتصار على الزمن و تظهر أشعار الأندلسيين أن نزعة الحنين ضاربة بجدورها في المجتمع الأندلسي مستولية على اعماقهم فتلاحظ أن الإحساس بالغربة يستبد بالشاعر الأندلسي حتى حين يرحل من مدينة إلى اخرى كما تدل هده الاشعار انهم حين يعمدون إلى تصوير الغربة و المعاناة المغترب على استطاعتهم التخلص من تلك النزعة التشاؤمية الحادة التي أشرنا إليها حينها يعبرون عنها بالموت في الحياة كما عند بعض الشعراء أو يصورها بعضهم بأنها أفظع من الموت كما نرى من خلال تحليل النصوص في الموضوع لبعض هؤلاء الشعراء و هي رؤية رغم مافيها من مبالغة و تطرف فإنها تكشف عن هده الخصوصية في المجتمع الأندلسي المرتبط دوما بدائرة

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص ص 49-52.

بيئته و هو يظل متعلقا بوطنه مهما قست ظروفه عليه و مهما أحس باختلال الأمن فيه و ضياع الاستقرار وجور الحكام و تفشي الفتن و الفوضى في أرجائه و لا بديل له عنه حتى لو تهيأت له فرص المجد و الشهرة في بلاد أخرى و إدا انتقلنا إلى عامل اجتماعي أخر مرتبط بالأول اتضح لنا أكثر سر هدا الحنين الدائم لدى الأندلسيين إلى الزمان و المكان و الأهل ، ويبدو دلك من خلال الجانب الحضاري لهدا المجتمع جانب الحياة اللاهية و أجواء الطرب جانب الطبيعة الأندلسية برياضها و أزهارها و منتزهاتها و مجلس الأنس و الشراب و الغلمان و الجواري.... دلك النعيم المادي و الأجواء السحرية الحالمة التي عاش جنبا من هؤلاء الشعراء.

2. شعر الغربة و الحنين في الأندلس

نرى أن الكاتب قام بعرض تاريخي نقدي لشعر الغربة و الحنين بالأندلس بحيث ادا كنا قد استعرضنا في إيجاز أهم البواعث الموضوعية و الدواعي النفسية التي لعبت دورا هاما في ازدهار غرض الغربة و الحنين لدى الأندلسيين فإننا سنعمد في الصفحات التالية إلى تتبع هدا الموضوع متدرجين مع التسلسل التاريخي محللين بعض أشكال مظاهره و مستخلصين بعض ثوابت رؤاه.

ولعل من الغريب الصدف ان يكون أول الشعراء أنشد على هده الجزيرة أبيات في تصوير الغربة و الحنين إلى المشرق تنسب لعبد الرحمن الداخل يخاطب فيها نخلة منفردة فيربط بين الغربتين:

تبدت لنا وسط الرصافة نخـــــلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت: شبيهي في التغرب و النوى وطــول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض، أنت فيها غريبـــة فمثلك في الإقصاء، و المنأى مثلي[1]

إلا أننا في هده المراحل الأولى من وجود العربي بالاندلس، لا نجد ما يفي بهذا الغرض فقد كان الشعر عبارة عن أبيات أو مقطوعات ينشدها هؤلاء العرب الأوائل يدور معظمها حول الخلافات السياسية و النزاعات القبلية و العنصرية و تسجل تلك الوقائع و الحروب التي كانت تنشب بينهم كما يروي دلك ابن الأبار في الحلة السيراء أما المرحلة التالية تعد بداية الأدب الأندلسي و التي تشمل الخلافة الأموية و العامرية فقد كانت المواضيع تتراوح بين مقطوعات في الزهد و النصائح و الاعتبار و أحيانا نظرات مستخلصة خاطفة في الناس و الزمان و الحياة و غيرها من المشاعر الذاتية بالإضافة طبعا إلى المديح الرسمي و الهجاء و الفخر و الغزل و التشوق.... إلا أن أهم المواضيع الطاغية هي وصف مظاهر الطبيعية الأندلسية و مظاهر حضارتها من خمر و مجالس أنس و غناء في أبيات و مقطوعات و قصائد قصيرة نسبيا حسبما أورد الحميدي و الضبي و غيرها من كتب السير و التراجم.....

و من هده الأمثلة أبيات لأحمد بن أبي المغا:[2]

أما ترى قضب الريحان مشرقة عن كل ازهار لماع التباشير

كأنها مقل أحداقـــــــها دهب جفونها فضة زينت بتدويـــر

إن دافع إلى النظم في هده المقطوعات التي تصور الطبيعة غالبا ما يكون خارجيا هو تلك المجالس التي يعقدها الخلفاء الأمويون و أمرائهم حيث يقترحون

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 53.
[2] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 54.

موضوعا و يكون نواة الإنشاد و مجالا للتنافس بين الشعراء لإظهار التفوق وقوة العارضة.

فمثل هده المواضيع التي تقترح في تلك المجالس كانت هي طاغية حسب المؤلفات الأدبية التي تناولت تلك المادة بالجمع منها كتاب أبي عبد الله الكتاني الطبيب المعنون ب: **التشبيهات من أشعار أهل الأندلس** و كتاب **البديع في وصف الربيع** لأبي الوليد الحميري و كلها كتب تستقي مادتها الشعرية مما كان يدور في هده المجالس و في البئة العامة من مفضلة و مناظرة بين وصف الأزهار و الريحان ووصف مجالس الشراب و السقاة و الجواري.. كما تكتشف هده المعايرة و المفاضلة عن علاقتها بالبنية الصراعية العامة في الأندلس الصراع بين العناصر و القبائل بين المسلمين و المسيحين بين العرب و البربر و يكشف صاحب البديع في وصف الربيع في توجهه النقدي عن مثل هدا الإهتمام و من خلال الأمثلة التي أوردها يتضح أن معضمها في وصف الأزهار و النواوير و الربيع و الرياض و غالبا ما اتخدت مقدمات لقصائد مدحية وبعضها ياتي مقترنا بوصف الخمر و الغزل و تقتضي تناول الموصوف من جميع الجهات و تقصي جزئياته و دلك بتكديس أكبر كمية من التشبيهات و الاستعارات للموصوف الواحد. بحيث يعلق الحميري على وصف ابن هانىء الأندلسي لنور الرمان في قطعة بان تشبيهاتها العقم:

وبنت أيك كالشباب النضر كأنها بين الغصون الخضـــــر

جنان باز أو جنان صـــفر قد خلفته لقـــــوة بوكـــــــر

كأنما مجت دما من نـــحر أو سقيت بجدول من خمـــــــر

لو نيتت في تربة من جـــمر لو كف عنها الدهر صرف الدهر

جاءت بمثل النهد فوق الصدر تفتر عن مثل الثات الحمـــــر

في مثل طعم الوصـــــــــل بعد الهجـــــــــر

فكلما تعددت الصفات و التشبيهات للموصوف الواحد حظيت بالاستحسان كما في إحدى التعاليق المؤلف على أبيات أحد القضاة في النيلوفر: "يصفه بوصفين غريبين و يشبهه بتشبيهين في قطعة واحدة..."[1]

و تظهر أمثال هده المؤلفات أيضا أن الجانب المطرب و المشرق و النادر هو الهدف المقصود في الصورة ففي هدا السياق تدرس تلك الظاهرة الأسلوبية في عناوين المؤلفات أمثال (المشرق)، (المغرب) (المرقصات و المطربات) كما تدرس تلك الظاهرة الأسلوبية التي تبدأ بها غالبا هده القطع الوصفية حيث تبدأ (بالواو) التي تدل على حالة من الانشراح و الدهشة و هي كلها تعابير تفيد الدعوة إلى الرؤية البصرية أكثر مما تصف حالة الداخلية أو إحساسا رمزيا.

و هناك جانب أخر يمكن استخلاصه من هده الصور و الأوصاف هو جانب الحياة الحضارية للمجتمع الأندلسي فتظهر مثلا كيف أنه من عادة الأندلسيين:

- اكتساب البساتين وزرعها بالأزهار فكثيرا مايرد في هده المؤلفات الإشارة إلى أن واجب الضيافة يقتضي إدخال الضيف إلى تلك البساتين للاستجمام
- هناك جانب اجتماعي آخر يمكن استخلاصه من مثل هده الأبيات و هو صورة العلاقة بين الرجل و المرأة و التركيز على وصف العلاقة الحسية دائما: فكثيرا ما ينكرر تشبيه الأزهار و الورود وما فيها من بقع لونية مغايرة بصورة العض في خد فتاة....الخ

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 57.

لقد اختلطت الرماح و السيوف و الشرفات و المجانين و الغزوة بالروض و الخمر و السوسن و الربيع و الرواطم...فلا تدري مادا يصف: الحرب أم الطبيعة وأية رؤية تشكل مثل هده الصورة رؤية الصراع و الحرب أم رؤية الطرب و اللهو، ان مثل هده الصورة التي تمتزج فيها بعد، في عهد الطوائف ثم في عهد المرابطين على الخصوص حيث سيلعب البعد العاطفي الجماعي عاطفة الجهاد الأساس في تشكيل هده الصور و هدا المزج كما نجد ابن عمار يمدح:[1]

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمـــــرا

وصبغت درعك من دماء كماتهم لما رأيت الحسن يلبس أحمـــــرا

و على منوال كتاب البديع و في نفس السيا و الفهم لوظيفة الشعر يدور كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لابن الكتاني فهو يركز غالبا على تلك التشبيهات النادرة و الطريفة في أوصاف الأندلسيين لكل مظاهر الكون و للجوانب الحضارية و الاجتماعية و لكن ما تقدم في طيان الأغراض اللهوية كالوصف زالغزل و الخمريات لا يعني أننا نعدم أمثلة تصور عواطف الشاعر الذاتية، و تتغني بلواعجبه وتصف الجانب الأخر غير المطرب من حياته. فهناك أمثلة عديدة سواء عند الشعراء كبار أمثال أبي المخشي في تصوير معاناته أم يحيي الغزال أو عند شعراء أخرين مغمورين دكرهم أصحاب التراجم أمثال حسان بن مالك الدي أورد له الحميدي قصيدة هامة في الحنين و دكر الأولاد .

وهناك بالإضافة إلى هؤلاء أشعار أبي عبد الله الخشني في الحنين إلى العراق:

كأن لم يكن بين ولم تكن فرقة إدا كان من بعد الفراق تـــــلاق

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 60.

كأن لم يؤرق بالعراقين مقلتـــــــي ولم تمر كف الشــوق ماء مآق

ولم أزر الاعراب في خبث أرضـهم بدات اللوى من رامة وبـــــراق

ولم أصطبح بالبيد من قهوة النــوى بكأس سقيانها الفراق دهـــاق

بلى وكأن الموت قد زار مضجـعي فحول مني النفس بين تـــــراق

أخـي، إنما الدنـــتيا محلة فرقـــة و دار غرور آدنت بفـــــراقي

تزود أخي من قبل أن تسكن الثـرى ويلتف ساق للنشور بســـــاق

ففي هده القصيدة ربط عميق بين مأساوية الفراق والبين في الحياة و بين الفراق الأبدي وفيها نداء إنساني حار لتقوى و الصلاح.[1]

3. قرطبة رمز الحنين

لقد عاش ابمن شهيد حسب المؤرخين وحسب شعره حياة صاخبة ماحنة و أصيب وهو في عنفوان شبابه بالفالج لإدمانه الخمر هده الحياة اللاهية لم يكن عليها الشاعر وحده بل كانت عليها طائفة من الشعراء الأندلسيين خاصة من عاش منهم كابن شهيد في وسط أرستقراطي متحضر و توفرت له أسباب اللهو و النفرغ لحياة البطالة، و من ثم نجد في ديوانه قصائد غزالية صارخة في الغلمان تدعو إلى المجون أو تحكي مغامراته وتقص من خلال الحوار بينه و بين الجواري مدى عبثه و أبيقوريته و طلبه اللدة الحسية كما إن أهم محور يشكل قصائده الغزلية في الجنسين معا هو اللدة المثيرة الصارخة، إلا أنه بالقراءة المتعمقة لحياته وشعره يتبين أن كل دلك ينم عن حزن عميق وشعور بمأساوية الوجود لا حد له يدكرنا بأبي نواس

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 63.

في تلك الانجاه المستهتر و المظهر الخليع الدي يخفي باطنا متأزما هكدا نجد أن الحنين عند ابن شهيد يتمظهر في ثلاثة مظاهر:

- حنين إلى قرطبة التي أصبحت خرابا وأطلالا.
- حنين إلى اللدة الصارخة المفتقدة.
- حنين إلى الحياة الدنيا من خلال رثائه لنفسه.

أما المظهر الأول فلعل أهم قصيدة تصلح نمودجا: رائيته المشهورة التي سنقتصر على أبيات منها:

عهدي بها و الشمل فيها جامع من أهل و العيش فيها أخضر

ورياح زهرتها تلوح عليهـــــم بروائح يفتر منها العـــــنبر

والدار قد ضرب الكمال رواقــه فيها وباع النقص فيها يقصر

والقوم قد أمنو تغير حسنـــــها فتعمموا بجمالـــــها وتأزروا

ياطيبهم بقصورها وخـــــدورها وبدورهم بقصورها تتـــــخدر

والقصر، قصر بني أمية،وافـر من كل أمر والخلافة أوفــر

والزاهرية بالمراكب تزهـــــــر والعامرية بالكواكب تعـــــمر

والجامع الاعلى يغص بكل من يتلو ويسمع ما يشاء وينـــظر

ومسالك الأسواق تشهد أنـــها لا يستقل بسالكها المـــــحشر

ياجنة عصفت بها وبأهلـــــها ريح النوى، فتدمرت وتدمــروا

آسى عليك من الممات وحق لي إدا لم نزل بك في حياتك نفخر

يا منزلا نزلت به وبأهلـــــــه طير النوى، فتغيروا وتنكـــروا

جاد الفرات بساحتيك ودجلة والنيل جاد بها وجاد الكـــتوثر [1]

ففي القسم الأول من هده القصيدة استرسال مع ذكريات و استرجاع لماضي المدينة حيث الشمال الجامع، و العمران و الحشد و الأسواق ثم ينتقل إلى القسم الثاني إلى نداء تلك الجنة(المدينة) التي عصفت بها الرياح النوى،وبأهلها ريح الدمار متحسرا على ما أصاب قومها وللشاعر قصائد أخرى غير هده في الحنين إلى ماضي قرطبة منها مقدمة طويلة في الحنين مهد بها لمدح عبد العزيز المؤتمن:

هاتيك دراهم فقف بمغـــــناها تجد الدموع تجد في هــملاتها

عجنا الركاب بها فهيج وجدانـــا دمن دعرن السرب من إدمانها

وفيها يسترجع ذكريات زمن الصبوة، ويبكي شبابه في تلك الديار والدمن، أما حنينه إلى اللذة واللهو فتظهره تلك القصائد التي نظمها في المرحلة الأخيرة من حياته، عندما أخد يشعر بفتقادها لاشتداد وطأة المرض عليه...

ويقول الدكتور يعقوب زكي:(..وهنا نرى بوضوح مرة أخرى دلك التوتر العصبي، في شخصيته المتناقضة المعقدة، فبالرغم أنه لم يعد قادرا على ركوب الدنوب فإن الشهوة العارمة، لم تزل تقض مضجعه...)

ويعكس هدا المظهر من الحنين، تلك المقدمة النى مهد بها لمدح عبد العزيز المؤتمن، حيث يستعرض تلك اللذة الحسية الشادة مع غلام بربري سادج...ثم يتلهف في حنين عارم إلى دلك الماضي، ودلك الزمن الحالم الذي مات،واصفا لهوه وعبثه بدلك الغلام:

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص71.

زمن قضى ثم انقضى فكأنه حلم قرأت الموت في تفسيره

أما رثاؤه لنفسه، فيمكن أن نطلق عليه: شعر ما بعد الموت، وهي ظاهرة لا يختص بها ابن شهيد وحده، بل سنجدها عند ابن خفاجة و المعتمد بن عباد....

وإدا كان الماضي عند هايدجر يعني الاستذكار، فان حنين ابن الشهيد إلى ماضيه في قرطبة عبارة عن استرجاعات واستدكارات تتوالى في تدفق وتوتر ثم تنتهي بالحسرة والأسى ويقول محقق الديوان: (إننا نجد تلك الرنة من الأسرار الغامضة التي أشار إليها غومس في قصائده مبعثرة هنا وهناك، بعضها يكاد يدكرنا بفرويد: إذ فيها نفاد إلى المناطق المظلمة من النفس البشرية، وفيها تلك الصلة الوثيقة بين الجنس و الموت...).

4. حنين إلى العيش الأخضر (ابن زيدون)

نظم ابن زيدون في المديح و الهجاء و الغزل و الرثاء و غيرها من المواضيع، لكن أجمل قصائده بإجماع النقاد قديما و حديثا هي تلك التي نظمها في الحنين إلى المحبوبة إلى طبيعة إلى قرطبة، إلى كل هده العناصر مجتمعة و اذا كان ابن الشهيد كأرستقراطي قد حن إلى اللذة الصاخبة الصارخة فإن حنين ابن زيدون حنين الارستقراطي إلى ترف العيش و بدخ الحضارة حنين ابن زيدون إلى النعمة و الجمال و الرقة حنين إلى الجمال في كل شيء إلى الشباب و مغامراته إلى الصداقة و الرفقة الطيبة قد تاتي هده العناصر مجتمعة في القصيدة الواحدة و هدا الغالب وقد يطغى عنصر على آخر في القصيدة أخرى لكن تبقى هده العناصر كلها

محور القصيدة الحنينية عند ابن زيدون و هدا ما سنكتشفه عند النصوص التي نشهد بها من هده القصيدة قالها يتذكر نعيم الماضي مع ابي قاسم بن رنق:[1]

عذري إن عذرت في خلع عذري غصن أثمرت دراه ببدر

في القسم الأول من هده القصيدة يصف زيارة المحبوب له ليلا أما في القسم الثاني من هده القصيدة خطاب لأبي رنق يشكوه غدر الزمان و تحول الأمور و يحن إلى الماضي الذي كان ينعطى فيها الخمر في إطار الطبيعة مقدما لوحة خلابة و صورة مشرقة اها يقول في هدا القسم:

يا أبا القاسم الذي كان ردئي وظهيري، على الزمان ودخري

ي أحق الورى بموحوض إخـــلا صي ، وأولادهم بغاية شكـــري

طرق الدهر ساحتي، من تتائـــي ك، بجهم من الوادث نكـــــر

ليت شعري و النفس تعلم أن لـي س بمجد على الفتى: ليت شعري

هل لخالي زماننا من الرجـــوع أم لماضي زماننا من المـــكر؟

أين أيامنا؟ أين ليالـــــــي كرياض لبسن أفواف زهـــر

وزمان كأنـــــما دب فيـــه وسن، أو هفا به فرط ستـــكر

حين نغدو إلى جـــــداول زرق يتغلغلـــــن في حدائق خضر

في هضاب مجلوة الحسن حمـــر وبراث مصـــــقولة النبت فر

نتعاطى الشمول، مدهبة الســربال والجو في مطارق غبـــــر

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص75.

أما القسم الثالث من القصيدة فهو خطاب آخر لأبي القاسم صديقه الوفي يذكره بجميل العلاقة وحسن الصداقة و الذمة التي جمعت بينهما مند أيام الصبا:

ياخليلي، وواحدي، والمـــــــعلى من قداحي، و المستبد ببـــــري

لا يضع ودي الصريح الدي أرض اك منه استواء سري وجـــهري

إن الشاعر عندما يسترجع هدا الماضي يتخذ واسطة هنا هو الخليل الصديق أبو القاسم: فهو نقلة بين حكاية الأشواق و اللواعج

إن القصيدة الحنينة عند ابن زيدون هي سيولة المنظر الطبيعي حينها تستعيده الذاكرة تعبير لا أجد أدق منه في وصف قصائده التي تمزج بين الذكرى من خلال المنظر الطبيعي.

ومن القصائد التي تصور غربة الشاعر و الإبعاد عن قرطبة إحداهما نظمها بعد فراره من السجن يخاطب أبي بكر بن أبي الحزم بن جوهر حيث قال:

شحطنا وما بالدار نأي ولا شحط وشط بمن نهو المزار وما شطوا

أحبابنا إن ألوت بحادث عهـــدنا حوادث لا عقد عليها ولا شـــرط

لعمركم، ان الزمان الدي قضـــى بشت جميع الشمل منا، لمشـــط

إنها الأشواق العارمة إلى الديار، إلى الأحباب، إلى الزمان رموز ثلاثة يستقطبها الرمز الأكبر: مدينة قرطبة.

أما القصية الثانية فقد نظمها أيضا بعد فراره من السجن و فيها يستعيد، ذكرياته طفولته و لهوه في قرطبة حيث قال:

خليلي، لا فطر يسر ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل أخص بمحموض الهوى دلك السفحـا

وما انفك جوفي الرصافة مشعري دواعي دكرى، تعقب الأسف البرحـا

وهكذا نلخص إلى القول، إلى أننا نلمس في حنينيات ابن زيدون من حياة والحرارة و الصدق ما لا نلمسه في الكثير من قصائد معاصريه و لا غرابة في دلك فشعره يكاد يواكب تقلبات حياته، و يترجم عنها بخلاف ما نجده لدى بعض الشعراء خلال العهود الأندلسية.

وان امتازت حنينياته بشيء فإن أهم ما يميز هو دلك المزج الفريد بين وصف الطبيعة و المرأة و قرطبة. هده العناصر كما سبق في التمهيد لهدا المبحث أهم محور تدور حوله هده القصائد. و لكي يصل الشاعر الحاضر بالماضي يعمد دائما إلى خلق واسطة تربط بين الدات و الموضوع أحيانا هي الصديق و أحيانا هو الخليل أما من الناحية الفنية، فإن أهم ظاهرة هي تكرار يقول شتايغر: إن ما يحفظ الشعر الغنائي من خطر التحلل إنما هو التكرار، التكرار لأساليب إنشائية معينة كالنداء، و الاستفهام و التمني و القسم و التوكيد و غيرها من الأساليب.

المبحث الثاني: غربة المكان و الزمان

1. رحلة التيه

1.1 غربة الشريط الطريد:

إن شكوة الشاعر من الغربة و البين لم يكن وليد الفتنة وحدها، بل هو إحساس قديم لدى الشاعر مند كان في بلاط المنصور العامري، فمن خلال الكثير من القصائد المدحية فيه، نجد تلك الات الشاكية من هموم النوى و قساوة الرحلة إلى الممدوح، كما نجد دلك الإحساس الفريد بالأسرة، و الشكوى من ثقل مسؤوليتها و خوفه الشديد عليها، كما في إحدى قصائده المدحية في المنصور بن أبي عامر يبثها هموم الغربة، وأشجان النوى و هو يخاطب زوجته:[1]

إدا شئت كان النجم عندك شاهدي بلوعة مشتاق ومقلة ســـــاهد

غريب كساه البين أثواب مـــدنف وحفت به الشجان حف الولائد

وفي قصائد أخرى يشير الشاعر إلى تلك الدلة و المسكنة وهو يخاطب الممدوح(المنصور العامري) و يتمنى أن يستبدلها و يحيي آماله بين الورى ولا ننس هنا التجارب المريرة التي مر بها الشاعر قبل أن يصبح مركزه مكينا في بلاط المنصور، ويدون اسمه في ديوان العطاء، لا ننس الامتحانات المتوالية التي خاضها حتى أُثبت ذاته.

هل أنت مدرك آمالي فمحـــــييها ومبدلي في الورى من ذلتي تيــها

بل إنه في أول قصيدة يمدحه بها، يضرب على وتر الشكوى، وأعباء الأسرة وفقدان الشباب، فتبدوا قصيدة الشكوى أكثر منها قصيدة المدح حيث لم يخصص له

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص89.

سوى أبيات قليلة في آخرها ويظهر أنها دالة تولدت أيضا لما كان يشعر به من عبئ مسؤولية أسرة كثيرة العدد، غير أن هدا إحساس سيتدفق عارما بعد الفتنة ستذكيه الرحلة و التشرد والضياع لدلك سينصب غضب الشاعر وسخطه على مرتكبيها و متسببين فيها ووصف شناعة ما أتور به من انتهاك للحرمات وقتل وتشريد لأهل قرطبة و قذفهم بالفجور وكل نعوت المقت والسخط كما فبالقصيدة مدح بها قاسم بن حمود وهو وزير يسأله أن يكتب إلى أخيه علي بسبته،فقط بدأها بشكوى وختمها بها مركزا على عدد الأبناء الدين يتقلون كاهله و الفتنة المبيرة التي أجلتهم عن أوطانهم متشردين لا مأوى لهم ولا ظل يستظلون به لقد حدث بهم سعوقات هول وروع فبدد قلب الشاعر هما وآلم كما تبنى شمل الأسرة كما جاء في القصيدة مايلي:

في ستة ضعفوا وضـــعف عدهـــم حملا لمبهور فؤاد المـــــبلد

شد الجلاء ريـــحالهم فتحملـــت أفلاد القلب بالهـموم الـــمبدد

وحدت بهم صعوقات روح الروعشردت أوطانهم فالأرض كل مشـــرد

لقد استبدل هؤلاء الأبناء النعيم بالعذاب. هكذا يقارن الشاعر بين ما كانوا عليه وما أصبحوا فيه، بين ظل القصور وحرارة الهجير، بين الماضي و الحاضر بقوله:

عادوا بلمع الآل في مد الضـــحى من بعد ظل في القصور ممدد

ورضوا لباس الجود ينهك منـــهم بالبؤس أبشار النعيم الأرغـــد

واستوطنوا فزعا إلى البـحر الندى أهوال بحـــر دي غوارب مزيد

إن فعل الجلاء وأحداث الفتنة مصاغ في الماضي مع أن آثارها ملازمة في الحاضر فهي مصدر عداب الشاعر كما أن التمزيق الدي أحدثته هده الفتنة في أسرة الشاعر لم يفارق وجدانه الشعري كما تظهر قصيدة له في المندر في الرحلة الأخيرة من حياته في سرقسطة فهو لم ينس شناعة تلك الأحداث التي يشبه هولها بهول يوم القيامة.

2.1 الفتنة تغير الهوية:

إن الفتنة ستقلب حياة الشاعر رأسا على عقب، ستستبدل هويته بهوية جديدة، هي هوية الشريط الطريد وتلبس أبناءه ثياب الذل وهوية أبناء السبيل. إن هدا المضمون يتكرر في كل قصائده الفتنة بداية التحول، لكنه تحول من الإيجاب إلى السلب، كما في هده القصيدة التي مدح بها بعض القضاة حيث وصف فيها الفتنة كأنها طوفان عارم، أو يوم القيامة غمت فيه السماء بعواصف الموت، و لمعت فيها بروق سيوف الاعتداء فشردت أبنائها عن أوطانهم و يمضي الشاعر في القصيدة يصف فظاعة الفتنة، وسيل الدماء وشناعة الأفعال ثم مقارنا بين ما كان عليه أبناؤه من العز و الكرامة وما أصبحوا فيه من الذل و المهانة بين الأمن و الاستقرار، بين الماضي والواقع في أبيات عديدة ليختم بأبيات قليلة في مدح هدا القاضي ويكون المدح هو ما أسداه لهؤلاء الغرباء الدين تقطعت بهم الحبال واحتواهم الموج:

وألبسهم ثياب الذل خـــطب يليهم في ثـــــياب الكـــبرياء

وألحقهم بلج البـــــحر سيل يمد مدوده فيـــــض الدمـــاء

فوشكا ما هوى بـــــهم هواء تألفهم بأفئـــــــــدة هـــــواء

وحال الموج دون بني سبيل يطير بهم إلى الغول ابن ماء

فالفتنة تسلمه إلى النوى وها هو يجتاز البحر إلى والي سبتة علي الحمودي بعدما خاب رجاؤه فيمن مدحهم قبله المتصارعين على السلطة بقرطبة يتوجه إليه بأسرته ليمدحه بقصيدة طويلة تعد من روائع قصائده.

3.1 بداية الغروب:

مطلعها:

لعلك يا شمس عند الأصـــيل شجيت لشـــــجو الغريب الدليل

وهي قصيدة مشجية فعلا يسري فيها النفس الرومانسي الحزين و يندس فيها وتر شيعي خافت وفيها اتخذ من الطبيعة الحزينة مدخلا زمن الأصيا والأفوال زمن الأشجان والغربة

والقصيدة يمكن تقسيمها إلى الوحدات التالية:

1-اتخاذ الشمس واسطة لبث خطاب الشكوى وهموم الغربة و تحميلها رسالة الأشجان إلى الممدوح:

لعلك يا شمس عند الأصـــيل شجيت لشجـــو الغريب الدليل

فكوني شفيعي إلى ابن الشفيع وكوني رسولي إلى ابن الرسول

فإما شهدت فأزكـــــى شهيد وإما دللت فأهدى دلـــــــيل

على سابق في قيود الخطوب ونجم سنا في غثاء الســـيول

في هدا القسم الدي يوجه فيه الخطاب للشمس وهو يقصد الممدوح طبعا يشكو داء خمولة و يعلن عن سقوطه وضياعه، ومعاناته للظمأ و يتعجب كيف

تحمل كل تلك الصعاب إلى الممدوح، وأبطأ عنه شفاء الغليل وكيف أصبح حظه عبارة عن خمط وأثل و سدر قليل مع أن أبحر الممدوح زاخرات بالخيرات والجنات و النعيم مشتكيا إليه من حرمانه و خموله راغبا في خيراته ونواله.

2- **الوحدة الثانية:** إعلان غربة الشاعر وتغرب أبنائه، ووصف مهانة البنات و تصوير هول الفتنة.

غريب وكم غربـــــت راحتا ه في الأرض من وجه بكر بتول

مكرمة ما نأت عن بـــــلاد ولا قربت من شبيه مـــــــــــثيل

تضيء بها مظلمات النفوس وتروي بها ظامئات العقـــــول

وتطلع في زاهرات النــجوم ومطلـــــــــعها جانح لأفـــوال

شريد السيوف وفل الحتوف يكـــــــيد بأفلاد قلب مهـــــول

في هذا القسم ينعت نفسه بالشريد شريد السيوف وفل الحتوف، ويصف أبناءه بقايا الفتنة التي يشبهها في هولها بهول يوم القيامة حيث تدهل الرضعة عن رضيعها وتنسى الحمائم دكر الهديل، و شط الصريخ عن دي الصراخ و فات المعول ذات العويل إلى آخر الصور التي ورد دكرها في القرآن الكريم في تصوير هول يوم القيامة.

3- الوحدة الثالثة يعرض فيها لنلخصه من الموت المحقق و نجاته و توجهه إلى الممدوح مع أبنائه بعد أن خلفوا أوطانهم وراءهم

فمن حرة جليت بالجـــلاء وعذراء نصت بنص الدميل

ولا حلي إلا جمان الدموع يسيل على كل خد أســـيل

فبدلن من بعد خفض النـــعيم بشق الحزون ووعث السهول

ومن قصر اليل نحن الحجال بهول السرى تحت ليل طويل

ومن علل الماء تحت الظلال صلاء القلوب بحــر الغليل

في هدا القسم يحن الشاعر وأسرته إلى الديار التي خلفوها وراءهم إلى المغاني الثكلى ولإلي المعاهد التي أصبحت دراسة موحشة ثم يعرض لوصف الرحلة كما يعود لوصف معانات البنات يبرزها من خلال المقارنة بين الماضي و الواقع الحاضر بين ماكن فيه من عز وما استبدلن به من شق الحزون ووعث السهول.

4- **الوحدة الرابعة:** رجاء الشاعر و تنانيه زوال هده التجربة على يد الممدوح.

لعل عواقـــبه أن تتـــــــم فيهدي الغريب سواء السبيـل

إلى الهاشمي إلى الطالبـــــي إلى الفاطمي العطوف الوصول

إلى ابن الوصي إلى ابن النبي إلى ابن الدبيح إلى ابن الخلـيل

في هذا القسم الأخير من القصيدة استغاثة بالممدوح ورجاء أن تنتهي معاناته و غربته على يده و هو يحشد له كل الصفات و النعوت في تكرارية وترداد، و يوظف كل صيغ المبالغة للتأثير فيه، و حمله على التعاطف مع خطابه.

لقد وظف الشاعر عنصر النعت ببراعة لإبراز تجربة الغربة حاشدا كل النعوت التي تدل على النقص و الضعف و الجنوح نحو النهاية سواء في وصف الشمس أو في وصف معاناته: كليل، غريب، دليل، عليل، شريد رابطا هدا الأفول و الجنوح بمظاهر الطبيعة: ومطلعها جانح للأفول.

4.1 رحلة الأغوال والأهوال:

الرحلة هي الثابت الأساس في تجربة ابن دراج إنها تبرز كمعاناة لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد معاناة سيزيفية، فهي ليست ككل الرحلات إنها العداب الدائم المتجدد الرحلة المخفية التي تحدق بها الأخطار و تكتنفها الصعوبات من كل الجهات، برا و بحرا فأهم امتحان يخيف الشاعر هو كيف يتجاوز العقبات إلى الممدوح كيف يتخطى الحواجز، كيف يقطع المفاوز و القفار، ليصل سالما و يحقق اللقاء هدا الهاجس رافق الشاعر مند كان في بلاط المنصور العامري، و إن البر و البحر يشكلان عاملين أساسيين في رحلة العذاب يترددان في جل قصائده كما سنرى من خلال النصوص الواردة ففي القصيدة التي يمدح بها المعتلي بالله يستهلها بالمقابلة بينه و بين الممدوح.

بل جعل الممدوح رمز حياته بأكلها فهو يسقيها فتتيع و الشاعر يهب له زهرة شعره وآدابه مستنكفا أن يبيع شعره فالمدح ليس دافعه الطمع، بل هو إقرار بالجميل، لأن الممدوح أفضاله سابقة بل هو الذي رد روح الشاعر إليه بل هو مقرب أنفاس الحياة إليه:

ثناء على من رد روحي روحه وقرب أنفاس الحـــياة من النفس

كيف لا وفي رحابه حط الشاعر رحلة القلق الدائم التجوال ومن بحره و بره نهل وآسى روعه:

وحطي رحلي منك بين مكـــارم يمزقن عني راكد الظلم الطمس

وبحرك لي يختال بالخيل و المها وبرك لي ينهل بالــبر و الأنس

هكذا يمضي الشاعر في القصيدة كلها يقابل بين ضمير الأنا الشاكية المغتربة و بين ضمير الخطاب الموجه للمدوح الذي يرجو الحياة على يديه و يرجو انتشاله من القبر إن المأوى في ظل الممدوح أمن من الردى وبعث وإحياء.

واذا كانت بنية التوتر و الصراع في رحلة ابن دراج هي عنصر البر و البحر فإن هدا التوتر يضاعف عندما يعرض المأساة أبنائه و تصوير معاناتهم لأهوال الرحلة البرية و البرية كما في هده القصيدة التي مدح بها بعض القضة حيث يردد نفس المعزوفة: الممدوا محيي الغريب النائي فقيد الأهل منبت الإخاء ففي هده القصيدة يركز على معانات الأبناء ،أبناء السبيل الدين شردتهم الفتنة وأسلمتهم إلى أمواج البحر، و أغوال القفار فتقطعت بهم حبال النجاة و أوشكوا على الموت المقابل بين ماضيهم وواقعهم الذي صيروا إليه مجبرين فرياح البحر تدكرهم بتناوح الرياح في ربوعهم الخالية و عدمهم لصفاء الماء يدكرهم بعدمهم لإخوان الصفاء إلى آخر المقابلات و التوازيات التي يوظفها الشاعر لتوليد الدلالة و تصوير محنته و محنة الأبناء و هو يتلاعب بكلمات البر و البحر و الموج و الطوفان تلاعبا يثير الإعجاب وأحيانا يردد كلمات: الشمس و الهجير و الصلاء و غيرها من التيمات التي تكون بنية الرحلة عند ابن دراج، وعندما يعرض لوصف معاناة الأبناء وما آلوا إليه بعد الفتنة، يعتمد السخر و المفارقة في التصوير.

كأن البر و البحر استــطارا تجارا همهم بعد الثـــــناء

يبيعون الرغائب، بيع بخـس ويشرون المصائب بالغـلاء

فكم طلبوا الأماني بالأمـاني وكم باعوا السعادة بالشقـاء

فلنتدبر هده التجارة التي خسؤت فيها الرغائب وربحت الهموم، تجارة فريدة أقامها البر و البحر و الخاسر الشاعر وأسرته هؤلاء الأبناء الدين يبيعون السعادة بالشقاء و الهموم بضائع تعلو و تنمو بالربح إنها صورة تجلي هدا البعد النفسي العميق الدي يستشعر المرارة و السخرية من هده المفارقات إن فعل استطارا يفيد هده السخرية من الحداث فالبر و البحر كلاهما اشترك في هده التجارة، جدبا و تمزيقا و تعديبا.

5.1 التجربة و الزمن:

فمثل هده المطابقات لها وظيفتها في توليد دلالة المفارقة الزمنية فان(أقوت ربوع العزم منهم) فهو يستعمل صيغة الماضي و هو يريد بها الحاضر :(اظلم، أصبح) فهو يدل على الحضور و الاستمرارية كذلك صيغة الفعل الثاني (عمرت) تفيد الماضي فالزمن النحوي هنا لا يواكب الزمن الواقعي الخارجي ولا زمن شعري فالزمن الخارجي منظورا إليه هنا بالمقياس النفسي و الإحساس الداخلي ينقلب مفهومه، فإدا (أظلم الاصباح) في الحاضر فكم (أضاء له مساء) في الماضي فالحاضر يتحول إلى صباح مظلم و الماضي هو المساء المضيء كما الجانب النفسي و العاطفي وحده وراء هدا الانزياح الزمني إن صح التعبير و التعابير الانفعالية التي تبدو غير منطقية وقد وظف لتوليد هده المفارقة الزمنية إلى جانب دلك عنصر المطابقة و المقابلة، وأن سر شاعرية ابن دراج تكمن في هده المطابقات و المقابلات الزمنية و المكانية ، في الجمع بين المتناقضاة و المتابعدات وإحداث الغرابة و توليد المفارقة عندما يعمد إلى جمع ما لا يجتمع و عقد المشابهة بينهما:(أظلم الإصباح–أضاء المساء)..ثم المبالغة في استخدام الاستعارة و التشخيص و التجسيد المعنوي على طريقة أبي تمام في تجريد المحسوسات و الإيغال في

المبالغة، كما أنه على مستوى التركيب يكثر م التقديم و التأخير و تغير الرتب و هده الميزة: التقديم و التأخير، و التغير في الرتبة ز النسبة، و الفصل تارة و الوصل أخرى، من خصائص الجمالية الشعرية عند ابن دراج.

إن هدا التلاعب بالمترادفات و الكلمات دوات الجدر الاشتقاقي الواحد، و الترداد لتعابير وصيغ معينة يركز التجربة، و يدخل دلك فيما أسماه د.مفتاح بالتشكل يبرز على مستوى اللفظ كما على مستوى التركيب و هي حقول فرعية تؤدي إلى الحقل المركزي للدلالة العامة، كلها مستويات موظفة لخدمة التجربة التي يقصد الشاعر ابرازها، باستعمال كل الطاقات اللغوية الممكنة، سواء في التركيز غلى المعجم الخاص أو في تكرار صيغ وكلمات معينة أو التركيز على صور هي وليدة التجربة و لغة المعاناة.

6.1 أطفال الجلاء:

إن الإحساس بالأسرة و هدا الترابط و التعاطف بالأبناء لا مثيل له في الأدب العربي فما كاد الشاعر يستهل يستهل قصيدة أو يختم مدحية حتى يسيطر عليه هدا الإحساس و تستولي عليه مسؤلية الأبناء، فتدنس الشكوى و يسري الحنين في جل هده القصائد و يتردد وصف معاناتهم وهو غالب ما يصفهم ويصف نفسه بالذلة و المسكنة فهم مهيضو الجناح ضعاف البنية، دائما ظماء، عطاش لا يدرون لهم في الأرض مشربا، سوى كبد الشاعر الحرى ومهجته الظميا كما في القصيدة التي يمدح فيها منذر بن يحي:

ظماء وما يدرون في الأرض مشربا سوى كبدي الحرى و مهجتي الظــميا

حيث يقارن بين التجاء ابطال الجلاد الممدوح بالتجاء أبنائه إليه الشاعر وبين تقصير رماح الأعداء عن ممدوح وتقصير رياش جناح الشاعر فكأن المدح مجرد قناع يزيحه الشاعر ليكشف عن داته وعرض آلامه وأحزانه.

كما أن أثناء عرض معانات أبنائه للمدوح كثيرا ما يذكر عددهم (كأنجم يوسف عددا) و عندما يعرض معاناتهم يستخدم الحوار ويبرز شكواهم و شكوى الزوجة و يحكي تلك الشكوى من طول الرحلة وعدم استطاعتهم تحمل المزيد، فهو يستخدم الحوار المباشر أحيانا واحيانا أخرى يحكي عنهم وعن حوارهم بضمير الغياب ساردا شكواهم و لهفتهم إلى الاستقرار، فهذه الشكوى تزيد من إرهاق الشاعر و تفت شكوى الزوجة خصوصا في عضد عزيمته تحرجه أسئلتهم، وتزيد حيرة فلا يجد من جواب مقنع سوى التمويه واصطناع الحكايات و مواساة الشاعر لهم بوضع حد لآلامهم عند الوصول إلى حمى الممدوح .

و يبقى الحوار المفتوح للشكوى المتكررة بين الأب المتعب و الأبناء الضعاف إنهم أطفال الجلاء أطفال ابن دراج الذين أضناهم التطواف و التجوال و الشاعر يعطي للتجربة أبعادا شاسعة تمتد في الزمان و المكان.

7.1 سرد المعاناة(النياق):

إن رحلة التيه و الظماء رحلة الأشجان و الهموم و الأطفال المشردين و الأب المتعب و النياق التي أضناها المسير الهجير و هي المحاور التي تشكل ثوابت القصيدة المدحية الدارجية، خاصة قصائده الأخيرة التي يطغى عليها موضوع لرحلة و الحنين ففي القصيدة التي سلف دكرها في الكاتب ابن أزرق، يمهد لها بمقدمة نثرية موجزة للممدوح يشكو فيها همومه، وأبناءه الهيم العطاش، و النياق الهائمات:(تحت غمام الغيوم، أدجى من الليل البهيم وأحمى من حر السموم تهيم

إليك بأحشاء الظماء الهيم و تحوم عليك بذماء الكاظم المحروم و بعد أبيات عديدة في المدح و اعتراف للمدوح بما صان به وجهه، وقنعه به من قناع الحرية يعطف الضمير من الخطاب إلى الذات فتتفجر الشكوى شكوى الهموم الرحلة و النياق التائهة في البيداء

فقد حان من برحاء الضـــــلوع رحيل تنادى ببرح الخفاء

على ذلل من مطايا الشـــؤون قطعن إليك عقال الثـواء

عواسف يهماء من غول همي يقتصر عنها ذميل النجاء

فتلك النياق المتعبة صارت رمزا للعذاب الحيواني مقابل عذاب الشاعر، فقد أجهدها السير و الظمأ، و هي تضحى بأجنتها فيجهضها الإجهاد مقابل أن ترد أنفاس الحياة إلى تلك الأسرة البائسة تلك النياق سفائن تموج بأبنائه في عرض الصحراء تموت ظمأ واحتراقا في سبيل إحياء نفوس ظماء، وبهذا التجاوب و هذا التشخيص تشارك الشاعر معاناته: إنها نياق ابن دراج المتعبة كتعبه:

جدلت أزمتـــــها من جفوني وصغت أخستها من ذمائي

وأنعلها قرحـــــات المآقـــي فأخضعها بنجيع الدمـــــاء

فمنجدة في مجال النـــجاد وغائرة في غرور الـــــرداء

ففي هذه القصيدة توظيف واستغلال كبير لعنصر الزمان و المكان و الرؤية إلى الأبعاد الزمانية و المكانية يكون من منظور التجربة النفسية: فالرؤية إلى الأرض من السفينة غير الرؤية إليها فوق الأرض فكما أنها في الصحراء نتيجة التضليل في السراب يون ما لا يرى أي رأيه نفسية غير واقعية فكذلك هم في البحر:

فالسفينة قريبة ما بين نضو ونضو، وهي بعيدة ما بين مرأى وراء هناك مسافات شاسعة، ممتدة.

2-أما القسم الثاني، ففي سرد هذه المعاناة وهو يتلخص في ثلاث استفهامات متوالية خرجت عن معناها الحقيقي إلى معنى التعجب و الاستنكار و الثورة:

فهل آذنت هجرتي أن ترينـــي عواقب تجـــلو كروب الجـــلاء؟

وهل ظفرت همتي من همومـي بثـــــأر منـــــيم ووتر بـــواء؟

ألم يتـــــناه غروب الغريـــب إلى مطلع الشمس في الانتـــهاء

إنه يستنكر هذه المفارقة الزمنية، فدورته في ظواهر الكون غير دورته بالنسبة للشاعر: فالزمن الوجودي الإنساني لا يتوازى مع الزمن الخارجي للطبيعة(طلوع الشمس بعد الغروب). هنا تكمن بنية التوتر و الصراع بين الشاعر و الزمن، إنها أسئلة محملة بالأسى و المرارة مشحونة بالحسرة مليئة باليأس

3- أما القسم الأخير في هده القصيدة فهو عودة إلى معزوفة الشكوى من الخطوب ونكبات الزمان، وتشبيه الأبناء بتلك الطيور التي عصفت بها ريح السموم فطرتها عن أوكارها ويصف تعلقهم المتين بأبيهم، وحدبه عليهم وحنانه وحبه الذي اقتسمه هؤلاء الأبناء بتساو بينهم.

بسبع كسبع سمام السمـوم وأربعة كربوع العـــــفاء

يفدون نفسي من الحادثات وما لي ولا هم من فداء

وكم ضربوا بقداح الحـنو علي ففازوا بقسم سـواء

هكذا نجد أن الرحلة الأبناء الممدوح الزمن تيمات ومحاور متكررة في جل قصائد هذه المرحلة الأخيرة من حياته، وهي محاور يتكامل تكرارها على جميع المستويات: الدلالة، التركيب، المعجم، الرؤية.. والتكرار للفظ و الحرف، بواسطة الترديد، و التقليب و التجنيس كلها تعمل على تركيز المعنى و تنمية الدلالة، فإذا كان التكرار ميزة الشعر كما عند جاكبسون، فإنه عند ابن دراج علامة أسلوبية بارزة ومؤشر رمزي و لغوي، و الرحلة يتجاذبها قطبان: الرغبة/الحاجز.

كما يعتمد أسلوب السخر، عن طريق اللعب باللغة و تغيير الإسنادات واستعمال الصورة الساخرة، فيعلو بتجربة عن طريق السخر، ويجعلها أكثر تأثيرا في الملتقي، و عندما يصل إلى هدا المستوى من التعامل مع التجربة باستعمال أسلوب السخر، و الجمع بين الأضداد، و قلب الذم إلى مدح و العكس، يعلو الشاعر على تجربته، ويبدع في اللغة، ويخلق انزياحات على جميع المستويات، فيها جدة و غرابة و صدق و شاعرية

8.1 الرحلة و الزمن:

إن عنصر الزمن يعد أساسا في القصائد التي نظمها الشاعر في سرقسطة، خصوصا في المنذر بن يحيي وابنه، وهي قصائد يطغى عليها موضوع الغربة و الحنين والرحلة، كما في قصيدته الميمية التي مطلعها:

إليك سبقت أقدار الحـــمام وعنـــــك هتكت أستار الظلام

ونحوك جبت ليل البيد حتى تركت دجاه مفضوض الخـتام

وزاحمت الخطوب إليك حتى خفيت على المنايا في الزحـام

فهو يصف ما تجشمه في سبيل الوصول إلى الممدوح، الذي جبر صدع كبده، وآسى جراح قلبه وحماه من كل خطب و كيف أن شمله أصبح أليف الشعب متسق النظام في حماه وكيف عاد شريد رحله عزيز الجار مضروب الخيام ومن جدواه رد دمه و لحمه وما انتقت الحوادث من عظامه وأن الممدوح هو الذي كفكف دموعه عنه الردى.

ولقتني الأماني منك وجـتها ينير الأرض في داجي الظلام

وآويت الغريب، وهل الغريب توخى ركن عزك باســـــتلام

وفي هذا القسم الثاني من القصيدة، الخصوص للإشادة بشجاعة الممدوح ووصف فتوحاته وانتصاراته الباهرة، في آخر هذا القسم نصل مع الشاعر إلى قمة إبداعه، ويتجلى في ذلك الموقف الأخلاقي العالي الذي وقفه إزاء أسرى ممدوحه، وكيف تعاطف معهم فربط بين تجربة أولئك الأسرى و تجربته، أولئك ذكروه بمحنته، فوجنات السبايا التي يكسوها الحزنوأسى أولئك الفتيان والأبطال المأسورين يذكره كل ذلك بأساه ،ثم يأتي القسم الأخير من هذه القصيدة، وفيه يتعجب الشاعر من الخطوب التي تبيح ستره وهو المعتصم بحمى الممدوح، مستثقلا تلك النوى التي تهوي برحله

فيا عجب الخطوب يبحن ستري وقد أيقن أن به اعتصامي

وحتام النوى تهوي برحـــــــلي وقد عقدت بذمته ذمـامي

فليس لنا إلى وطن مـــــــرد ولا في دار قوم من مــقام

فالحداء ملازم لركباه، و يمينه ملازمة لا تفارقه، وهو يعلن ألا مرد إلى الوطن، ولا عودة إلى الماضي: فهي رحلة الدائمة والمعاناة المستمرة.

تتلخص أهم الظواهر الدلالية في هذه القصيدة، بصفة خاصة في هذا التضاد و الرؤية الزمانية و المكانية و المقابلة بين النقيضين، سعيا نحو توليد المفارقة التي تحدث الغرابة و الدهشة و توظيف الصورة الساخرة، والصورة تتم عبر هذه السياقات بواسطة التشبيه والاستعارة و المقابلة، المبالغة في التشخيص و التجسيد و الجمع م لا يجتمع، أما أهم العلاقات الأسلوبية، فهي التعاور و التكرار. فالرحلة تعاد و تتكرر و اللغة تتكرر تترادف، تتجانس، تتولد، فتتشعب ثم تنمو في انسجام في اتجاه الحقل دلالي مركزي، وصورة عامة، هي عذاب الرحلة المتكررة

9.1 جنة الممدوح وأحلام ابن دراج:

إنها صورة يتخيلها الشاعر للممدوح دائما، ويتمنى أن تتحقق في الواقع وقصائده في المنذر كثيرا ما يتردد فيها التبشير بالجنة كتعويض وجزاء لما تحمله من أهوال الرحلة سبيلة مثلا قصيدته النونية يبدؤها بتلك البشرى وهب الاقتراب من جنة الممدوح بقطوفها الدانية وهو يخاطب زوجته:

بشراك أيتها الدنيا وبشـــرانا أحياك بالعدل من بالأمن أحيانا

لعل آمالنا بالله قد صدقت وصدق موعده بالفتـــــح قـد آنا

وعودة تمتري عفوا وعافية ودعوة تقتضي صفحا وغفرانا

و الشاعر في هذا التصوير لنعيم الذي يحلم به يستوحي كثيرا من تصوير القرآن الكريم لنعيم الجنة و متعها ، فنعم الممدوح هي جنة ابن دراج التي يود أن تتحقق في الأرض ،فإن التميز له وظيفته الجمالية في هذه القصيدة بالإضافة إلى وظيفته الدلالية في الإفصاح عن رغبات الشاعر ونوعها و تميزها بما لهذا الأسلوب من تكثيف و إيجاز و إيحاء في فهمنا و هذه الرغبات و الأحلام كما سلف القول

تتكرر عند الشاعر في قصائد أخرى يطول بنا المقام لو حولنا استقصاءها، نها تلك التي يمدح بها المنذر بن يحي أيضا يبشر فيها نفسه بقرب الفرج، وسفور الصباح بعد ليل طويل من العذاب و السرى ، ومنها أيضا تلك التي يمدح فيها ابن باق يبدؤها بالشكوى، شكوى البعد و الغربة، ويتمنى أن يسمع الممدوح نداء ابن السبيل وذل الغريب و القصي البعيد، كما أن حلم ابن الدراج الذي لا يتحقق دوما، حلمه ببر وبحر يسالمانه حلمه بالجنة ينتفي فيها الهجير و الصلاء والظما وتحلل الظلال و الخضرة، ففي الجنة وحدها ينتهي الصراع و ينتهي التناقض و التوتر، لكنها كما قلنا مجرد أحلام ورغبات فالشاعر يستعمل لعل وهي لترجي و الشك و طلب شيء غالبا في حكم المستحيل.

إن تصوير رائع لرغباته وأمانيه. فشمس الهجير ها هي تبدو له مشخصة في الممدوح شمس هدى تنير له الطريق فيعطف الضمير على نفسه، ويخاطبها كأنه غائب وتلك دوحة الله زكى غرسها فزكت، وستوسعه أكلا وظلا وأشجارا وإنها رغائب الشاعر الدفينة تنطلق متدفقة في مونولج داخلي مستحضرا صورة الجنة بكل نعيمها ومتعها عندما يتم القاء بالممدوح متع الجنة التي ينتظرها بعد طول سفار ورحلة عذاب جزاء لصبره ومكابدته

10.1 مطلع الغروب:

الشاعر في صراع دائم مع الزمن من أجل العودة إلى الماضي إنها رحلة يريدها إلى الوراء لا إلى الأمام: فالأحداث تدفع به في اتجاه حتمي وهو يحاول جاهدا النكوص إلى الوراء، حيث أجبر على ترك الديار ومغادرة الوطن، يتجلى هذا التوضيح في القصيدة التي مدح بها أحد رؤساء الكتاب يتحدث عن غربته، غربة الدهر حيث يكون طلوع هلال العلم من الغرب:

غرائب مما أغرب الدهر أطلعـــت عليك هلال العلم من أفق الغـرب

طوت فاولت الأرض نحوك وانطوت كبدر إلى محق، بشهر إلى عقب

فمن غرائب الدهر وعجائبه، طلوع هلال العلم من أفق الغرب، إنه بدر ابن دراج يسير إلى المحاق وشهره يتقلب إلى عقب كما سارت شمسه إلى الأفوال، في القصائد السابقة، فالزمن هنا يكتسب مفهومه وتحدد أبعاده بمنظور التجربة النفسية و ليس بمنظور الواقع الخارجي وقد وظف الشاعر العطف بدقة بالغة لإظهار هذا المكون: التعاور أو المعاورة فمن بر إلى بحر، ومن بحر إلى البر وليل إلى صبح وصبح إلى ليل وكرب إلى روح وروح إلى كربويعد كوهن الواو العطف من روابط الوصل الخالصة: فالدلالة تتوصل وتنمو والرحلة تتواصل تستمر، تتناوب تتعاقب ، إلى ما لا نهاية، رحلة دائرية يبدؤها من حيث يعود، ويعود من حيث بدأ.

وما الإقامة المؤقتة في ظل الممدوحين سوى استراحة مؤقتة لتبدأ انطلاقة الرحلة من جديد. فهي الثابت الوحيد، حكم القدر الذي يلاحقه، لقد عملت كل أدوات الربط على تجلية التعاور خاصة واو العطف وتكراريته مما يدل على ثبات الرتابة، وثبات الحالة .

11.1 انسداد الآفاق:

إن الممدوح رمز الحياة عند ابن دراج فهو مصدر الراحة والاستقرار، ومورد العيش في يديه كل المنى والآمال فهو الأمن للخائف، الري للظمآن الظل للضاحي بل إنه يخاطبه صراحة أن يغدق عليه المحيا أن يهبه النعيم و المشرب ويسدل عليه من الظلال ما يقيه حر الهجير كما في قصيدته التي مدح بها الموقف مجاهد أمير دانية:

إلى أي ذكر بعد ذكراك أرتـــــــاح ومن أي بحر بعد بحرك أمـتاح

إليك انتهى الري الذي بك ينتـــــهي ولا لي الرأي الذي بك يلـــــتاح

وفي مائك الأغداق والصفو و الروى وفي ظلك الريحان والروح والراح

وكل لأثـــــمار الحـــياة مـــــهدل وبالعطف مياس وبالعرف مـتياح

و السؤال في البيت الأول يضمنه الشاعر كل أحزانه، تعب السنين التجوال و التنقل بين الممدوحين، والوقوف بباب هذا وذاك. وبالتالي يظهر أن الشاعر قد ضجر من كل الممدوحين وأنه استنفذ كل الطرق الموصلة إلى الراحة و الاستقرار.

أما في القسم الأخير ليجلي عذابا آخر مضافا إلى عذاب الرحلة، الخوف الدائم ألا يلقى الممدوح منشرح الصدر، مستبشر الوجه، فيسوف اللقاء و يقدم رجلا، مؤخرا أخرى حفاظا على بقية ماء الوجه وشحا على آخر قطرة كرامة يريقها متمنيا الموت وحلول النهاية قبل استنفاذها.

فهناك رغبة عميقة في أن يحقق الممدوح أحلامه في الاستقرار، وضمان مورد العيش هذه الرغبة تظهر في شعره بطريقتين:

1- الإفصاح عنها بضمير الغياب وبلسان الممدوح فيتخيل أنه يقول له: أهلا وسهلا، مرحبا بقدومه مغدقا عليه من نعيم جنته، كما مر لك في قصائد سالفة.

2- الإفصاح عنها بواسطة الحوار بينه و بين زوجته تارة أخرى .

ويرجو أن يتحقق حلمه القديم في جنة ملؤها الظلال و الريحان و الراح و كل ما فيها بأثمار الحياة مهدل، تلك ثمار الجنة التي يتمناها الشاعر في الحياة مستخدما كل صيغ المبالغة، والتكثير التي تفيد العطاء و الوفير و النعيم و الجزيل،

وبعد القسم المدح يأتي القسم الثالث و الأخير من القصيدة و فيها يعود إلى الشكوى من الرحلة وأهوالها:

إليها حدتني حادثات كأنـــــها بوارح يحـــــدوهن برح و ابـــراح

على غول بحر من هموم عبابه برحلى إلى غول المتالف طـــواح

إذا رام تغريقي فلـــــتج وغمرة وإن مد في ظمئي فآل وضحضاح

إن ثنائية البر/البحر تشكل في رؤية الشاعر وحدة وعاملا مشتركا من عوامل اضطهاده: البحر و البر هذا لإغراقه وذاك لإحراقه وهما معا يتعاورانه جذبا وتناوبا، وهو يصور الطبيعة دائما (البر و البحر) في أشد حالاتها قساوة وفي أقصى تطرفها، وعنفها موظفا صيغ المبالغة(طواح) وصيغة أفعال(ضحضاح) مياس، و عندما تجتمع(ظلم الأسى)و(يكتئب) تتراءى له صورة الممدوح ووجهه كنور مصباح يضيء له السبيل:

إذا مد إظلام الأسى ظلم الدجـــــى تمثل لي من نور وجهك مصباح

في هذه القصيدة أيضا توظيف لنفس العناصر اللغوية الدارجية:

- –فالمقابلة بين أهوال الرحلة وما يصبو إليه من نعيم الممدوح.
- –هناك استحضار صورة الجنة، يقابلها صور عطاء الممدوح.

وصيغ المبالغة هنا، تقابلها صيغ المبالغة هناك(الجنة=الممدوح)

- –التساوي و التوازي.

كما أن العطف في :(وكل بأثمار الحياة مهدل، بالعطف مياس و بالعرف مياح) يفيد الاستمرارية، و الرغبة في المزيد من النعيم و العطاء، كما يساهم هذا

التوازي و التساوي بين عناصر الأشطار كما في البيت الأول في تركيز الإيقاع الذي يؤدي وظيفة إشباع التوقع لدى المستمع القارىء: التوقع الدلالي و الغيقاع كما عملت أداة الشرط على توليد هذه المساواة في الجملتين: جملة الشرط و جوابها ، كذلك وظف الشاعر كعادته التكرير الذي تركز في الجناس،خاصة في هذه القصيدة بين: الروح و الراح، الريحان،لاح،بلتاح،أمتاح،أرتاح..والاشتقاق في :برح،أبرح،بوارح إلى غير ذلك من التقنيات الأسلوبية، ولعب ابن دراج العجيب باللغة،لعب الرحلة به، هكذا تكاد كل القصائد المدحية لابن دراج تتحول إلى قصائد شكوى ةغلربة وحنين، خاصة قصائده، حيث يعلو بتجربته إلى درجة الرمز عن طريق السخر، سخرية من الأيام والليالي سخرية من الأقدار من انقلاب الأوضاع والأبعاد الزمانية والمواقع و الحدود، سخرية من ذلته، بيته الوضيع، من أبناء الجلاء بقايا منقذات الفتنة.

إن عنصر السخر زاد في تعميق التجربة وفلسفتها، وجعل القارىء يتجاوب مع هذه التجربة الإنسانية التي ابرزها بواسطة التصوير الساخر، فالخمار نتيجة فعل الزمن بالشاعر. وهذا مايمكن أن نطلق عليه(انزياح السخر) .

2. حنينيات سرقسطة

1.2 الزمان و المكان:

في هذه القصائد التي نظمها الشاعر في عهد المنذر وابنه بسرقسطة تتكثف التجربة وتتخذ شكل الرمز، عامدا إلى استخدام ضمير الغياب، ساردا حكاية وتجربة غائب هو ابن دراج، فتكتسب التجربة بعد الرمز فكأن الحكاية صارت مثلا ورمزا كما سيرد في النصوص المستشهد بها، وفي هذه القصائد يلعب عنصر الزمان و المكان دور المحور في تشكيلها وتنمية دلالتها و خصوصية التجربة وخصوصية الرؤية الشعرية، وهي قصائد نظم أغلبها في أواخر حياته فهو ما فتيء يمدح إلى

آخر هذه الحياة وسنقتصر على بعض النماذج منها تتجلى فيها هذه الخصوصيات التي أشرنا إليها منها هذه القصيدة التي يشيد فيها بالمنذر بما حققه من نصر في إحدى معاركه ضد المسيحين، فبعد القسم المدح أتى قسم الشكوى، دون أن يمهد له بتمهيد مناسب، فأحدث فجوة كبيرة بين النصين: نص المدح/نص الشكوى/الغير/الذات.

فقد جاء في هذا البيت:

واسأل بضيفك كيف بـــعدك حاله وقد اقتضه بـــــــعد دار دار

يوهم أن الشاعر عطف به على شيىء آخر، بينما هو لم يعطف وفي قصيدة أخرى:

غدرت به أيـــام عام قد وفـــى إن الوفـــاء بعـــهده غـدار

ودنا به أجل الرحـــيل كأنـــه أجل الممات دنـــا به المـــقدار

عام كعمر الوصل، لـــــيلة زائر وأســـى تقاصر دونــه الأعمار

طالت لياليه الـــزمان بـــهمه وكأنهن من الســـرور قصـــار

بمشرد، قلق الثـــواء، بـــمنزل لا ينـــثني فـــيه لـــه الـــزوار

لقد عمل فعل الأمر على تغير مجرى القصيدة وتحويل موضوعها فمن سرد أمجاد الممدوح إلى طلب السؤال عن حال الشاعر، من أسلوب الإخبار إلى أسلوب الإنشاء من ضمير المخاطب إلى ضمير الذات المتكلمة ن فمن خلال ضمير الغياب(حاله، غدرت، به،دنا، به) يسرد الشاعر أشجانه و يحكي عن همومه مع الزمن و الرحيل و هو يخاطب الممدوح يحكي عن الرحيل الذي يتمثل له دنوه كأجل

الممات، يحكي عن تشرده واضطراب مقامه. ثم يعود الشاعر إلى التعجب من السرعة المذهلة التي مر بها عام المقام ، كما يتعجب أيضا من تلك المفارقة الزمانية و المكانية العجيبة كيف تنبو الديار بهم(أهل بيته) و تلك ديارهم التي خلفوها وراءهم خالية فيقارن بين الماضي و الحاضر، ثم يعمد غلى تصوير حزن أبنائه و لهفتهم على المنزل ويصف حسرتهم وتنهداتهم وتأوهاتهم التي تعلو كلما وقعت أعينهم على دار بها استقرار ثم يختم القصيدة بالعودة ألى مخاطبة الممدوح الذي توجه أليه هؤلاء البؤساء وحطوا أرحلهم بفنائه، وإن مضمون الذلة و الصغار الذي صيره إليه الرحيل الدائم قد عبر عنه بصور و أسايب مختلفة ومعان متعددة كلها تفيد الاستصغار و الوضاعة :كالثواء، تأوه الأبناء عند رؤيتهم لمسكن ما ، خزي المقام وضاعة المثوى، مشرد قلق، نبو الديار بأبنائه، غربان الشؤم عار الزمان إلى غير ذلك من التعابير و الصور التي تفيد الذلة و المسكنة.

- **الرؤية الوجودية للزمان و المكان:**

1- إن الأبعاد الزمانية و المكانية تكتسب مدلولا جديدا ومتميزا في هذه القصيدة: فهو يقيس الأبعاد بالمقياس النفسي فالزمن لا يعيد دورته بالنسبة للشاعر، ولا يخضع لجدلية الصيرورة: موجب+ سالب=موجب بل هو زمن يسير دائما في اتجاه واحد من موجب إلى سالب دائما، فقط زمن الرحلة يدور عاما بعد عام.

2-والعام الذي قضاه في ظل الممدوح *عام الاستقرار النسبي*مر بسرعة خارقة، كليلة زائر، كعمر الوصل وبقي الأسى الذي تتقاصر دونه الأعمار.

3-الزمن غدار لا وفاء له، لقد غدرت به أيام عام قد وفى، دون أن يحس بذلك دون أن يعيش ذاك الزمن كامتلاء كما قال هيدجر.

4-دنو أجل الرحيل، كدنو أجل الممات في مرارته وفجاعته

هذه رؤية الشاعر لزمن رؤية المعاناة، حيث تتبدل الأبعاد، وتتغير المقاييس، تبعا لذلك.

أما المكان، فأنه يلعب دورا بارزا في هذه القصيدة، بالإضافة إلى عنصر الزمان فهو ينمي مضمون الحرمان من المأوى الذي كرره بصور مختلفة، وقد دلت مؤشرات أسلوبية متكررة، على هذا المحور، محور المكان: المثوى، المنزل، دار، ديار ،وطن، الأنيس، المفاوز....الخ وقد استغل الشاعر عنصر المقابلة على مستوى الزمان و المكان مما ولد المفارقة، وأثار العجب والدهشة:

-بعد دار=دار، فشتان بين الدار الأولى والثانية.

-عمر الوصل قصير= عمر الأسى طويل

-أما الفعل، فغالبا ما استعمل في الماضي و البناء للمجهول. فالأفعال الماضية:(اقتضه،غدرت،دنا) وهي تدل على القضاء وانتهاء الأمر و الحتمية الزمنية

-أما القصيدة في مجملها فهي تتراوح بين مختلف الأساليب، من إخبار إنشاء، من سؤال إلى سرد من تعجب إلى تصوير وهناك تنويع في استعمال الضمائر كذلك من خطاب إلى غيبة، إلى متكلم ثم عودة إلى الغياب و الخطاب،حكي المتكلم عن نفسه بضمير الغياب.

2.2 فجيعة التحول:

القصيدة الثانية في هذا المحور، محور الحنين فهي هائته في المنذر أيضا، استهلها بالبين و الفراق و الدموع و الحنين الجارف إلى الوطن و الذكريات و النعيم الماضي:

أهل بالبين فانـــــهلت مدامــعه وآنس النفر فاســـتكنت مســامعه

وودع المنزل الأعـــلى فودعـــه في القلب لاعج بث لا يـــوادعه

يا معهدا، لم يضع عهد لوفاء له مكسف النور عافي القدر ضائعه

ولا ثني عـــبراتي عـــــن تذكره دهر، تقارع في صدري قـــوارعه

فالبيتان الأولان اللذان استهل بهما القصيدة حديث عن البين و الأشواق و اللواعج لفرقة المنزل الأعلى كل ذلك معروض بضمير الغياب الذي ينبهم على القارئ مرجعه، فكأنه بذلك الأسلوب يحكي عن ابن دراج آخر، صار رمزا وحكاية تروى.

أما في المبحث الثالث و الرابع حيث النداء للمعهد العالي، الذي فارقه والذي لم يفارقه حبه وإخلاصه مؤكدا حبه ووفاءه مظهرا أشواقه وعبراته داعيا له بالسقيا ولمرابع الذكريات، فالذي يبلي بإمكانه أن يحيي ويجدد، فيتدفق الحنين عارما إلى الوطن الذي لا ينسى رغم قوارع الدهر ذلك الوطن الذي يثوي بين ضلوعه، شاكيا من تباريحه التي شفت قلبه متعجبا من ذلك الوطن الذي استوطن شغاف قلبه.

إن النداء تلك الصورة، صورة الماضي بين المنادي و المنادى عليه الوطن البعيد عنه زمانيا ومكانيا. ولإلغاء هذه المسافات يعمد الشاعر إلى خلق واسطة

للاتصال بين الطرفين ،وكالعادة الشاعر في التعامل مع اللغة، فهو يكرر، ويرادف ويجانس، ويكثر من الاشتقاق بواسطة إعادة الضمير الذي تتشكل منه القافية على ما قبله من الأفعال التي تتكرر في القافية جمعا، هذا العب أو التكرار لعناصر وصيغ لغوية، بالإضافة إلى وظيفتها الدلالية التي تتجلى في الإلحاح على المعنى و التركيز على التجربة.

3.2 ربيع قرطبة:

أما القصيدة الثالثة في هذه الحنينيات فهي في المنذر أيضا، بأها بالحنين والآسر الأشواق الملتهبة وهو يخاطب فيها الربيع، يشخصه و يكلمه يبثه أشجانه إن الربيع في هذه القصيدة رمز للماضي ربيع الشاعر في قرطبة، حيث الشباب و الاستقرار و النعيم وإن الربيع رمز الينعة والنضارة والحداثة، يتحول إلى ربيع دامع العينين يفيض صبابة وشوقا إنها الطبيعة بالمنظور الداخلي والمشاعر المتقدة لقد خلع على الربيع واسطة للذكرى، ذكرى عهد كريم قد مضى فإذا كانت الواسطة بين الذات المتشوقة و الموضوع المشتاق إليه في القصيدة السالفة هي الصبا و المطر، فإنها في هذه القصيدة هي الربيع:

قل للـــربيع مـــلاء ســـحائب فاجرر ذيولك في مجــرى ذوائبي

لا تكـــدين ومــن ورائك أدمعي مددا إليك بفيض دمع ســـاكب

وصبابة أنفاسها لك أســـــوة إن ضاق ذرعك بالغمام الصائب

وامزاج بطيب تحيتي غدق الحيا فاجعله سقي أحبـــتي وحبائبي

هكذا يعود الشاعر من ربيع قرطبة الحالم إلى الواقع، إلى ربيع سرقسطة السريع الزوال إلى الأبناء الأذلة الجامدة قلوبهم خوفا فوق الظعائن، القلقة البال

الدائمة التجوال يعود من رحلة الأحلام إلى واقع المرارة والأسى الدائم و هكذا يمضي في وصف معاناة أبنائه، وكيف أصبح ميت الرغائب،رغم أن المسيح قد ورثه قدرة الأحياء إشارة إلى خلود آثاره الأدبية

3. شعرية ابن الدراج

أولا- الرؤية:

والرؤية وليدة تجربة ابن دراج مع الغربة و الترحال.الرؤية عند ابن درتج هي كل مايشكل شعوره وإحساسه بالحياة والقيم.

فكيف رأى ابن دراج كل هذه القضايا؟

1- الغربة والتغريب: من خلال النماذج المحللة، تبين أن الغربة في رؤية الشاعر هي مسخ للإنسانية استبدال لهوية العزة والانتهاء بالهوية.

2- الرحلة: المجهولة المخيفة التي تكتنفها الأخطار من كل الجهات، برا و بحرا و الرحلة في رؤية ابن دراج لها مدلولات واسعة في شعره. فهي تارة المخاض الذي ليس لمولده رضاع، وهو مخاض يتعاوره دائما : فمن بر إلى البحر و من البحر إلى البر.

3- وصف المعاناة: وهو في تصويره لمعاناة الرحلة يركز على عنصر الأسرة أحيانا تكون الزوجة، فيزيده إذلالا عذابها و أحيانا الأبناء البنات، فلذات الكبد التي أبرزت للأخطار حيث تكون معاناته جزءا من معاناة الأبناء، و العكس صحيح أيضا.

4-الزمان والمكان: يحتل الزمان و المكان بنية أساسية في قصيدة الغربة عند ابن دراج. لقد طرد من مدينته وأصبح مشردا وأسرته لا مكان يأوي إليه حتى ضاقت بهم

كل الأمكنة ولم يسعهم قرار فحنينه أبدا إلى المكان ولهفته لا تنتهي إلى الماضي إلى الاستقرار حنين جارف إلى حط الرحال في مكان ما و ذات يوم ما.5

5- الكون وطبيعة: لقد خلع الشاعر من تجربته عل مظاهر الكون وطبيعة فرآها بهذا المنظور. فالشمس تسير نحو الغروب إلى الأبد ولا انتهاء لغروبها بالطلوع من جديد و البدر يسير إلى المحاق دوما ولا يعود إلى النمو و الاكتمال إنها مظاهر وأوضاع شاذة في الكون وفي عالم المعاناة حيث يتم ربط بينهما و بين مظاهر الطبيعة الواحدة تامة تندمج فيها اللذات بالموضوع ويتم فيها اسقاط الهموم الذاتية على مظاهر الكون، كما يتجلى ذلك عند الرومانسيين.

ثانيا- الظواهر الجمالية في لغة ابن دراج

تكمن شعرية ابن دراج في ظواهر أسلوبية خاصة تتمثل في كيفية إبراز ذلك الجانب المأساوي من حياته وعرض تجربته كمبدأ الأسرة و الزوجة و الأبناء، خاصة البنات. و المتلقي يدرك مدى ما تمثله هذه الرموز في وجدان العربي المسلم من قيم كالشرف و الحرمة و القداسة، وقد وفق الشاعر في إبراز تجربته وتحقيق غاية التأثير في المتلقى اعتمادا على تقنيات أسلوبية خاصة و هكذا ينمو النص الدراجي و تمتد دلالته و تنمو اعتمادا على العناصر التالية:

1- على التزاوج بين المحور السياقي و المحور الاستبدالي في تناغم وانسجام فريد وهذا يعني كما قال ياكبسون، أنه كلما تحقق في مستوى السياق الدرامي أكبر قدر من التكثيف المجازي و الاستبدالي في صور و مصاحبات اللغوية و كلما تحقق مستوى الاستبدالي من روح التنامي و التكامل السياقي بفضل المفاعلات الدرامية، ما يكاد يجعله ينبسط في بنية سطحية كلما تعانق هذان المحوران واشتمل أحدهما على

بعض خصائص الآخر تحقق أكبر قدر من الشاعرية و الفاعلية الوظيفية في هذا الشعر.

2- و الصورة عند ابن الدراج وليدة التجربة. فالتردد بين الاستقرار وعدم الاستقرار بين النوم و اليقظة والتعاور بين البر و البحر و هو ما يشكل منبع الصورة عند ابن دراج و خصوبتها وثراءها حيث تشحن بأبعاد دلالية و نفسية و جمالية في نفس الوقت فحركية الرحلة هي مصدر الصور عند الشاعر

3.3 المقابلة و المطابقة:

هي من العناصر الأساسية في شعرية ابن دراج و هي تعمل على نمو النص و توليد الدلالة، وقد قال حازم (إن المعاني تقترن على أساس التماثل و المناسبة أو على أساس المضادة و المخالفة

4.3 التركيب:

توظف اللغة عند ابن دراج توظيفا خاصا متميزا فيه انزياح وكثافة رمزية فهو يركز على عناصر خاصة تشكل مؤشرات أسلوبية كالنعت مثلا: فهو يوظفه بكثافة لإظهار نقصه و ضياعه، كماحق البدر ووضاعة المسكن وتشرد الابناء، نعوت كدليل ،الغريب، القليل، وبالإضافة إلى النعت، هناك عناصر أخرى تكون تلك الخصوصية الشعرية عند ابن دراج، وتتجلى في ذلك التلاعب العجيب باللغة كالترديد وإحداث التوازي و الاستفهام و التمني و التشخيص و التجريد و الجمع بين الأضداد.

4. فجيعة التحول

إن لهذا الشاعر مع دهر قصة طويلة، وصراعا مريرا صراعا مع الأقدار التي حرمته من نعمة البصر و صراعا مع الكائدين من أهل زمانه، لقد ظل في معظم شعره يردد أحزانه وهمومه كما عبر في هذا البيت:

وليست حياتي غير شجو مردد عـــــهدت له ألا ألذ حـــياتنا

إن مشكلة الحرمان و الشعور الجارف بالظمأ و الحاجة إلى الحماية، مشكلة جوهرية عند هذا الشاعر و تزداد عمقا و تجذرا في وجدانه، بفقدان الوطن و فقدان الشباب.

لقد عف الأعمى التطليلي في جل أغراض شعره على نغمات التذمر و الشكوى من الغربة و الضياع و الحرمان، خاصة في أمداحه التكسيبية التي تشكل القسم الأكبر من ديوانه حيث يزاحم نص الشكوى نص المدح و يتداخل صوت الذات بصوت الغير في شكل و مزج فريد حتى لتتحول القصيدة المدح إلى قصيدة شكوى وحيث يتضخم نص الذات و تطغى لغة الأنا على حساب لغة المدح التي لا يترك لها في بعض الأحيان سوى أبيات معدودات مما حملنا على اعتبار هذه النصوص نصوصا ذاتية ندرجها في الشكوى و الغربة أكثر مما ندرجها في المدح.

كما أن الشاعر المكتسب بمدحه عانى أزمة نفسية حادة و غربة وضياعا، عبر عنه في كل الأغراض وأدرج تلك التجربة في كل المناسبات، سواء تغزل أم مدح أم وصف كما عند الأعمى التطليلي، في النماذج التي أوردناها لكن ليس هؤلاء الشعراء الذين عرضانا لهم هم كل شيء فهناك شعراء على نفس الساحة التاريخية كما عند ابن خفاجة، الذي تندرج غربته في إطار وجودي هو تحول الزمن وانعكاس

ذلك على مظهر الإنسان أي في إشكالية الشباب/الشيخوخة، أو إشكالية الزمنية وما سيتضح عند المعتمد بن عباد الذي هوى من قمة المجد إلى حضيض الأسر، وهناك ابم حمديس الذي أخرجته الأوضاع السياسية المتمثلة في الزحف المسيحي على مدن صقلية فخرج إلى تيه الغربة، و الحصري الضرير الذي خرج من بلده القيروان بتونس قاصدا الأندلس و المغرب، وذلك نتيجة التخريب الذي تعرضت له المدينة على يد عرب بني هلال. و سوف نقف وقفة عند هؤلاء، أما ابن خفاجة فسنخصص له بحثا مستقلا.

5. الحنين إلى صقلية

إن غربة ابن حمديس هي غربته عن الوطن و الأهل و عليهما يدور الحنين عنده و يتركز، لقد وقف ابن حمديس كما فعل الشعراء الذين سبق ذكرهم يستنكر تناقضات الزمان و يسخر من عجائب مفارقته: فالدهر يمضي بعبثية صروفه و جدلية تحولاته غير عابىء بالشاعر أو مبال به:

وقفت من التناقض مســـــتريبا وقد يقف اللبيب إذا اســـــترابا

كأن الدهر محسنه مســـــىء فمـــــــا يجزي على عمل ثوابا

و الشاعر غالبا ما يوجه خطابه إلى زمنه الذي عاش فيه، زمن الصراع و الحرب الذي كان وراء خروجه من وطنه وهو مازال في ريعان الشباب. إنه زمن لا يسالم الشاعر أبدا زمن قانت على ساق فيه الحرب على حد تعبيره، كما أن ذكرى الخروج من وطن وبداية رحلة الغربة والتيه لن تفارق وجدان الشاعر، لقد بدل بعد سراة قومه ذئابا في الصحابة، فازدادت غربته ووحدته فليس من مجالس سوى الكتاب ومن رفيق يوى السيف .

ولما رأيت الناس يرهـــب شرهم تجنبتهم واخترت وحـــدة راهب

هكذا يمضي الشاعر في رحلته وحيدا صابرا، بعد أن أرته التجربة أمورا كانت خافية عليه، أرته أن الزمن تناقضات وأن مصائر الناس في تحول دائم، بل إن مظاهر الطبيعة كلها تخضع للتحول و الصيرورة.

إن صورة صقلية الجنة تتردد في كثير من قصائده صورة وطن الجنة القابعة وراء البحر يشكل حاجزا رهيبا ضد العودة. فهو في قصائد أخرى يذكر أنه حاول العودة مرارا دون جدوى، وفي إحدى المحاولات غرق المركب الذي كان يقله، وغرقت جاريته جوهرة، إذكلما حاول صباحا كلما تعرض له البحر مساء بالمنع و الإحباط، فتفشل كل محاولاته السيزيفية في القاء .

وهكذا نلاحظ أن كل موضوعات عند ابن حمديس مثقل بهموم الغربة ومحمل بأشجان النوى و البعد، ومشحون بالحنين العارم لى الماضي المرتبط بالأهل والأرض و الجذور، فالخمر و المرأة ومظاهر الطبيعة و الممدوح و البحر و الموت، كلها رموز موظفة عنده في سياق التجربة، وفي تنمية دلالة الغربة و تعميق الإحساس بالحنين مشكلا قاموسه اللغوي من ثنائيات و تقابلات تنمي تلك الدلالة وتعمقها.

الحصري الضريري: الغربة موت في الحياة

إن تجربة الغربة عند الحصري كما عند ابن حمديس، تندس في كل الأغراض كما في مدحه لقاضي مالقة، أبي المطرف الشعبي:

تفكرت في الدنيا وفي غربتي بـــها فضاقت على الأرض في الطول و العرض

وكما في قصيدة أخرى، حيث يعلن سآمه من الإقامة بطنجة ويتوق إلى مالقة، حيث القاضي الممدوح: هناك سيورق عوده ويسود شعره، وتعود إلي نضارة الشباب ، لقد خرج الحصري من بلده القيروان بعد أن خربها بنو هلال، و ضو على حضارتها ومراكز علمها فهاجرها كثير من علمائها وأدبائها، منهم الحصري الذي قصد الأندلس ثم المغرب. ووقت جوازه إلى الأندلس نظم قصيدة يودع فيها قبر أبيه، ويبكي غربته، و الجنة التي خلفها وراء البحر، ذلك البحر الذي يحول دائما دون العودة و اللقاء.

هكذا رأى الحصري، كما رأى ابن حمديس، أن الغربة سجن وأسر لا نهائي وكلاهما قرن الغربة بالموت، وكلاهما يئس من العودة، وكلاهما لم يجد التعويض في البديل عن الوطن/الجنة، وكلاهما رأى في البحر حاجزا رهيبا محبطا لكل محاولة في العودة، وكلاهما اتخذ من اليل زمنا للذكرى والبكاء، حيث تهيج الأحزان ويتجدد الوجد.

6. المعتمد بن عباد

لقد كان هذا الشاعر فريد من نوعه في تجربته فهو يتميز عن باقي شعراء الغربة والحنين بكونه كان ملكا، وكان راعي هؤلاء الشعراء بل راعي شعراء الغرب الإسلامي كله، على حد تعبير غرسيا غومس، فهو الرمز الأندلسي الذي بقي بعد ذهاب عز بني أمية وبني عامر، فلا عجب أن يخلف سقوط هذا الرمز صدى عميقا ومدويا سواء في شعره أو شعر من ندبه ورثاه، وهو حي كابن اللبانة وابن حمديس وأبي بحر بن عمد الصمد وغيرهم كثيرا إلى عهد ابن الخطيب الذي أنشد قصيدة في تأبينه بل إلى عهد المقري صاحب النفح. لقد شطر الدهر حياة هذا الملك الشاعر شطرين متناقضين لا توسط بينهما: شطر العز و السلطان و شطر الذلة و السقوط

و الأسرى. وتبعا لذلك انقسم شعره إلى قسمين: شعر اللهو و الغزل و الخمريات و المجون وشر الشكوى و الغربة و الحنين.

فالقسم الأول عبارة عن مقطعات وقصائد قصيرة تدور حول وصف جواريه وطلب وصالهن، وذكر حكاياته معهن: مع وداد وسحر وأم الربيع وقمر وجزهرة..إلخ، وكذلك وصف مجالس الشرب و الخمر، أو وصف ذكرياته في شلب مع ابن عمار، وأيام لهوه برفقته. و في هذه المقاطعات غالبا ما تعتمد المبالغة و التكلف في إظهار عواطف الحب و الصداقة، و هي تحتضن إعجابا آنيا قصيرا، إعجابا بصريا طربيا غالبا أنه حب المتعة المتعددة الأصناف.

كما في الأبيات مخاطبا إحدى جواريه، ومتغزلا فيها وأن حبه بها شغله عن الجد و الجهاد:

يا أيها الشمس التـــــي قلبي لهل أحد البـــــروج

لولاك لم أك مؤثـــــرا فرش الحرير على السروج

وفي أخرى يظهر حبه و عواطفه في جارية يجد مشمها أفواه في معطسه ووجهها أملح في ناظره:

مشمك أفراح في معطسي ووجهك أملح فـي ناظري

ظفرت بقربك بعد امتناع فمن ذال سميت بالـظافر

لقد هوى المعتمد بن عباد من قمة المجد إلى حضيض الآسر فكانت شكواه وغربته متميزة، وكان تعبيره متميز أيضا ومتنوع الأشكال، لكنه دوما يتمحور حول مضمون واحد، هو: المقارنة بين الماضي العزيز و الحاضر الذليل .

وبين الماضي المجيد والحاضر الذليل، بين كان وأصبح يحترق الشاعر شوقا ويتمزق لوعة وحسرة على قصوره التي خلفها وراءه، على عزه الغابر ومجده الضائع فيبكي دون انقطاع.

فالماضي عند الشاعر، هو الجنة المفقودة، والعز المنهار، هو الوجود الحقيقي الكامل، لذلك فهو لا يميل من استرجاع هذا الماضي واستحضاره، وتمني عودته واللهفة عليه وإرسال التمني تلو التمني، والنداء تلو الآخر، في إصرار وتكرارية يمنح تجربته بعدا شاملا ويكسبها رسوخا و تجذرا، كما في هذه الأبيات الحنينية:

فالبيت شعري، هل أبيتن لـــــيلة أمامي وخلفي، روضة وغدير

بمنبتة الزيتون، مورثة الـــــــعلا تغني قيان، أو تـــــرن طيور

بزاهرها السامي الذرى، جاده الحيا تشير الثريا نـــــــحونا ونشير

فالتكرار في هذه القصيدة يلعب دورا أساسيا في تعميق دلالة الغربة والحنين الإنساني العارم، فأدوات النداء و التمني و الترجي و الاستفهام كلها خرجت عن معانيها الأصلية لتوظف في معنى آخر وسياق خاص هو سياق الاستنكار.

وهناك عنصر آخر حقق هذه الغاية الجمالة والدلالية في أسريات هذا الشاعر يتجلى ذلك في تلك الأساليب المتنوعة التي يستلزمها المضمون الندبي كمضمون إنشائي تنمو فيه الدلالة عن طريق التراوح و التبادل بين الاستفاهم/التعجب/التمني/الترجي وكلها تأتي بمعدلات عالية.

7. غلام البكري وآخرون

إذا كانت أصوات الغربة و الحنين قد ازدهرت في العهد المربطي، وتنوعت حسب تجارب الشعراء، من الحنين إلى الاستقرار، كما عند شعراء المدح التكسبي ومن الحنين إلى الوطن كما عند ابن حمديس ومن الحنين إلى العزة والسلطان كما عند المعتمد بن عباد، فقد وجد شعراء آخرون حنوا إلى الماضي المرتبط عندهم بنعمة الصبا، نعمة الأنس و اللهو و في منازل الذكريات وسط الأهل ووسط الخلان والأصدقاء، كما نجد غلام البكري وابن رحيم وابن عطية المحاربي وغيرهم. فقد مثل الماضي لهؤلاء الشعراء رموزا أخرى هي رموز الألفة، وصفاء العيش ونضارة الحياة وبهجتها و يتأسف الشاعر على فقدانها ويدعو لها بالسقيا والحفظ من يد الأيام:

نفديك من منزل بالنفس والذات كما لي بمغناك من أيام لـــذات

نجني بك العيش والآمال دانية أعوام وصل قطعناها كساعـات

نسقي لديك اغتباقات مسلسلة والدهر قد نام عنا باصطباحات

ياقبة الدهر لازلت مجـــددة تلك المعالم، مادامت مقيـــمات

مثل هذا الإرتباط الرائع بالطبيعة، بمعاهد الذكريات والصبا الحنين إلى الماضي النعيم، الماضي الجنة سيزدهر عند شعراء العهد الموحدي عندما تدفعهم الظروف الخارجية إلى الهجرة ومغادرة تلك المواطن التي ألفوها وارتبطوا بها، وغالبا ماتكون هذه الذكريات الحلوة مرتبطة بفترة الشباب لذلك فالحنين إليها في الواقع حنين إلى الصبا و الشباب، كما في القطعة السابقة، وكما عند عبد الله بن عائشة الذي حن إلى زمن الشباب، وندب رسمه متحسرا وبكى تولي عهوده:

ألا خلياني والأســـــى والقوافيا أرددها شجوا وأجـــــــــهش باكيا

أآمن شخصا للمســـرة باديا وأندب رســـــــما للشبيبة باليا

تولى الصبا، إلا تـوالي فكرة قدحت بها زندا، وما زالت واريا

وهناك شاعر آخر سيجعل هذا الحنين إلى الشباب وبكاء معاهده محور شعره كله. هو ابن خفاجة الذي سنخصص له بحثا مستقلا.

غلام البكري:

فهو يجمع كل هذه العناصر في حنينه إلى الماضي وتتعمق نظرته إلى الحياة وصداقة و التحول الزمني ليخلص إلى رؤية معينة، إلى الزمن و التحول وذهاب الشباب وتغير قيم الصداقة وحب الفراق عن الأهل و العشيرة، ذلك مايؤرق الشاعر ويجعل حياة الانتهاء أدهى من الردى وأفظع من موت عنده، هذه الرؤية تعكسها قصيدتان له فيهما من العمق ومن التلقائية في التناول ومن التكثيف في الرمز، ما يجعلهما متجاوزتين لعصر الشاعر وذوقه المولع بالزخرفة، لتلتحقا بذلك الشعر الإنساني الحي

القصيدة الأولى:

ألاحت وللظلماء من دونها سدل عقيقة برق مثلما انتضى النصـل

أطارت سناها في دجاها كـــأنه تبلج خد حفه فاحـــم جـــــثل

لدى ليلة، روميـــــــة حبشـية تغازلنا من شهبها أعين شـــــهل

تود عيون الغانيـــــات لو أنها إذا مرضت عند الصباح لها كحل

فالقصـــيدة يمكن تقسيمها إلى وحدتين

1.7 الوحدة الأولى: هذا القسم خاص بوصف ليلة النعيم الليلة الباهرة ليلة الماضي كما بدت لشاعر في كمال حلاها ليلة اشتد سواد ظلمتها وتلألأت نجومها واشتعلت كواكبها وشهبها وسرى فيها البرق باللمعان الخاطف، لكن الكمال لا يدوم والنعيم لايستمر فسرعان ما دب الصباح كما يدب النمل وهو يستقر في مدارجه لقد استفاق الشاعر من أحلامه وذكرياته مع انكشاف الصباح وبدإ الوعي بالحقيقة الزمن وأخذ ينظر إلى الكون و الصداقة نظرة مغايرة وهكذا تبدأ رؤية أخرى وصورة مناقضة في القسم الثاني.

2.7 الوحدة الثاني : في هذا القسم يعرض نظراته في الحياة و الموت ومعنى الصداقة والانتهاء و الاغتراب وحياة النبذ والإفراد لينتهي إلى رؤية عامة وحكمة ختم بها القصيدة هي خلاصة تجاربه، فالزمن يحول كل شيىء ويغير القيم والعلاقات والأهل والصداقة والحب و العشرة، وهاهو الشاعر قد نكر الدنيا والأهل والخلان وأصبح فريد منبوذا، لا أهل ينتمي إليهم ولا فناء دار يأوي إليه ، فهو لا يكتفي بتصوي وحدته فقط من جانب واحد بل يعمد إلى تركيز هذه التجربة بتصوير الفراغ الذي أحدثه غياب الأهل والأصدقاء عنه، بالفراق في الحياة أو الموت.فهو يعمد إلى تصوير هذه الوحدة القاتلة بعد ذهاب الأحباب بصورة الذي يترك تريكته في العراء فريدا وحيدا يواجه الأقدار والطبيعة، صورة لا تقل في غناها عن صورة سابقة فكم من حبيب كان روضة خاطره، فضحا ظله وتقلص وامحى، وإن حياة الشاعر بعدهم لهي أفظع من الموت و إن نعيمه لن يقوم له أبدا ظل، إلى غير هذه الصور الفريدة التي تجلى هاجس الوحدة والاغتراب في أعماق الشاعر.

أما القصيدة الثانية، ففيها يمجد زمن الطفولة البريئة والحداثة الرائعة، ويتذكر سذاجة الحياة الهنيئة رفقة صديق العمر، حيث كانا رفيقين في المكتب، مكتب المعالي و أصبح الآن يؤرقه بعاده وافتراقه عنه:

أرقني بعدك البـــــعاد فناظري كحـــــله سهاد

ياغائبا وهو في فـؤادي إن كان لـــــي بعده فؤاد

الله يدرين وأنت تــدري أن اعتــقادي بك اعتقاد

تذكر والحادثات بـــله ليس لـــــها ألسن حداد

ترتكز القصيدة على ذكر الماضي، زمن الطفولة الزاخر بأروع قيم الحياة: الصداقة،الحب،البراءة زمن المتعة الحقيقة بجمال الحياة وروعتها، زمن الشقاوة في المكتب وصبغ الأفواه بالمداد، زمن لم تكن فيه الأسئلة الفلسفية قد برزت بعد، عن علة الوجود الإنساني عن مسألة الكون و الفساد. ومع ذلك، كانت الحياة بسيطة هكذا يمضي الشاعر يمجد أخلاق صديق الطفولة، الذي تجمعه به المودة والإخاء والذي مهما حاول الحساد والماكرون النيل منها، فلن يتحقق لهم ذلك، لأنه لا زال يحمل في أعماقه جزءا من أخلاق الطفولة تلك.

المبحث الثالث: إشكالية الزمن في شعر ابن خفاجة

1. مظاهر هذه الإشكالية في شعره

ربط الشاعر هذه الإشكالية بكل الأغراض المعروفة: ربطها بالغزل، بالمدح، بوصف مظاهر الكون كما ربطها بالرثاء، فهو عندما يتغزل بمحاسن عفيراء تلك الفتاة اليافعة: يقرئها السلام، يتمنى وصالها يستفسر عن نضج أنوثتها. سرعان ما

يستيقظ من أحلامه الباطنية على واقع مرير وجدار سميك يحول بينه وبين تمنياته، هو جدار الزمن فالفتاة في سن الرابعة عشر وهو في سن الواحدة والخمسين لتبقى اللهفة على شباب والنضارة و تبقى الحسرة و المرارة.

ويبقى حلم ابن خفاجة في استعادة زمن الطفولة و الشباب و أهم مايشكل عالمه الشعري:[1]

أرقت لذكرى منزل، شط، نـازح كلفــت بأنفاس الشمال له شـــما

فقلت لبرق يصدع الليل، لامع ألاحي عني ذلك الربع و الرســما

وأبلغ قطين الدار أني أحبــهم على النأي حبا لو جزوني به جما

وأقرىء عفيراء السلام وقل لها ألا هل رأى ذلك السهى قمرا تــما

إن القصيدة مشحونة بالانفعال مزدحمة بصيغ التمني والاستفهام والنداء: (ألا هل؟) (هل؟) (فيا ليت) وكلها استفهامات ونداءات يراد بها التمني تمنيات اليائس، الذي تتأرجح في صدره رغبة عارمة في الرجوع إلى زمن الفتوة و الفحولة الجنسية، ويرى الدكتور عبده بدوي أن تكرار مثل هذه الأساليب الإنشائية يدل على مقدار التوتر الذي يعانيه الشاعر أما قصيدة المدح فإنه كثيرا ماكان يحولها إلى قصيدة شكوى من تقلبات الأوضاع وذهاب الشباب. فهو مثلا في قصيدة يمدح فيها ابن زهر:

شأوت مطــايا الصــبا مطلبا وطلت ثنايا العـــــلى مـــــــرقبا

يعلن أنه بلغ الستين، واتخذ الذكرى و الحنين إلى الماضي مدخلا طويلا حيث انطلقت أشواقه إلى أيام الصبا في تلك الأماكن البدوية، وخاض في ليل السرى

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 212.

القفار تلو القفار، واستوقف الركب والخليلين ليحدثاه عن أيام الشباب، ومعاهد الصبا كما حن الهديل على بانة فذكره بليلة اللوى، فتحسرى متألما على أيام الشباب والسعادة الغامرة وندب ذلك العصر الذي خلا .

أما قصيدته المدحية في أبي إسحاق إبراهيم، فقد سلك فيها نفس المسلك:

سجعت وقد غنى الحمام فرجعا وما كنت لولا أن تغنى لأسجعا

وأندب عهدا بالمشقر سالفا وظل غمام للصبا قد تقشعا

ولم أدر ما لأبكى: أرسم شبيبة عفا، أم مصيفا من سليمى ومربعا

القصيدة طويلة اتخذت من مقدمتها واسطة لذكرى أيام الصبا، حيث أثار سجع الحمام أشجانه وبعث ذكرياته بشقر، تلك التي انشقت كما تنشق غمامة سارية، و هي صورة تدل على سرعة زوال الشباب، وإن كان تذكر الماضي هو معايشة من جديد كما عند باشلار، ومعاودة إحياء له فإننا لانجد شاعرا حاول ذلك كما فعل ابن خفاجة عن طريق الاسترجاع الدائم و الندب و البكاء المردد.

2. الشاعر و الكون:

إذا انتقلنا إلى وصف مظاهر الكون، وجدانا أن الشاعر لم يعد يرى الطبيعة برؤية الماضي، ماضي الشباب، حيث كان يراها مشرقة،، راقصة، مغرية، بل أصبح يراها بمرآة تجربته الداخلية، وهي مرآة فيها كآبة السنين وصدإ الزمن ما لم يعد بالإمكان تلميعه، لقد كان الشاعر في الماضي يكثر من وصف الرياض و الأزهار والأنهار ومجالس الأنس، أي ما يلازم حياة الشباب من نزهات واجتماعات لتناول الخمرة مع الأصحاب وغير ذلك، أما في المرحلة الثانية من حياته، فإن أهم المظاهر التي ارتكز عليها وصفه هي الجبل و القمر و اليل، أي كل ما يوحي

بالسكون و الرهبة و الامتداد، و يوحي بالسرية و المجهول، في هذا الإطار المخيف على مستوى الزمان و المكان وبهذا التصوير العنيف لمظاهر الكون، يقوم الشاعر برحلته التي نرى أنها رحلة نفسية داخل أغوار الشاعر أكثر منها رحلة ولقعية.إنها رحلة الخوف و الوحدة:

وحيدا، تهاداني الفيافي فأجلتي وجوه المنايا في قتاع الغـــياهب

ولا جار إلا من حسام مصمم ولا دار إلا في قتـــــود الركائب

ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ثغور الأماني في وجوه المطالب

وليل إذا ما قلت قد باد وانقضى تكشف عن وعد من ظـن كاذب

وما تكرار لا نافية للجنس: "ولا جار" "لا أنس" "لا دار" سولى تأكيد لتلك الوحدة المرعبة التي عاناها الشاعر في ذلك اليل البهيم.

3. الشاعر و الليل:

إن الليل يشكل مدلولا واسع الايحاءات والرموز، وإن تجربة الشاعر مع الليل عميقة وصلته به ليست مجرد وصف خارجي وسطحي، إنه ليل الذكرى و الأشجان الدائمة ليل الخوف و الرهبة، كما مر في قصيدة الجبل وكما في هذه القصيدة الطويلة التي وصفه فيها وخلع عليه من ذاته. إنه ليل ابن خفاجة:

وليل، كما مد الغراب جنـــــاحه وسال على وجه الســـجل مدادا

به من وميض البرق والجو فحمة شرار ترامي و الغـــــــمام زناد

سريت به أحييه، لا حية الســترى تموت، ولا ميت الصـــباح يعاد

يقلب مني العزم إنـــــسان مقلة لـــــــــها الأفق جفن و الظلام سواد

فمن الليل يشعب الشاعر ويشتق ويخلق صوره الفريدة.إن ليل ابن خفاجة هو ليل الأرق و السهاد ليل البرق الخاطف المفزع، ليل الظلمة الحالكة كما سال على وجه السجل مداد، وقد سقت الإشارة في قصيدة الجبل إلى ما تمثله صورة الليل من عنف و قسوة، إنها من أبلغ الصور التي عبر بها الشاعر عن تجربته في هذه القصيدة إنه المصير المنتظر الممتد، و الصباح هو شباب الشاعر الميت الذي لن يولد ثانية، وتلح عليه صورة الليل مرة أخرى القصيدة فيراه كسيف قاطع و يرى جمر الكواكب في الأفق تصطلي ليعلوها من الفجر المطل رماد، حيث يزدادحنين الشاعر و يتجاوب نواحه، مع نواح الحمام وقد انجلى حداد اليل البهيم عن فقدان حبائبه الذين ساروا بعيدا وحالت بينهم وبينه الوهاد و الفيافي.

وهكذا يمكننا القول أن الليلي عند ابن خفاجة هو مصدر كل الصور التي توحي بالكآبة و الفزع و العنف فهو تارة ذلك الغرب الأسود المرعب الذي لاحق الشاعر باستمرار يحاول الانقضاض عليه. وهو ذلك المداد الأسود الذي سال على وجه السجل، فحول بياضه و نصاعته إلى ظلمة، تماما كما يحول بياض الشباب إلى سواد العجز و الشيخوخة. وهو تارة يصفه الليل بالسيف القاطع يجول دون استمرارية الشباب كما يصف توهج كواكبه بأن مصيرها التحول إلى رماد عندما يبزغ الفجر. و الفجر عنده لا يعني ولادة جديدة مشرقة، بل هو فجر مفجع ينكشف له عن فقد أحبابه، وذهاب أصدقائه بعيدا حيث لا رجوع ليزداد حنين الشاعر. فهو لا يرى إلا الظلمة الممتدة و الصباح بدوره يتحول إلى نقيض رمزيته البياض بعد أن فقد الشباب:

وإني وعيني بالظلام كحـــيلة لآبي لجنـــبي أن يلائم مضجعا

وأكبر شأنا أن أرى الصبح أبيضا بعين ترى ربع الشبـــيبة بلقـــــعا

فليل هو الديمومة، و الاستمرارية وما الصبح سوى قميص ليل مرقع ببقع سوداء، الصباح خادع و الحياة ومضات، وعلى منوال قصيدة السالفة في وصف الليل وتركيز على تصويره وتصوير تجربته من خلاله هذه القصيدة الطويلة التي تذكر فيها عهد الشباب وقارن بين الماضي و الحاضر:

أما و الخيال قد أطاف فســـلم لقد هاجني وجد أناخ فخـــــــيما

واذكرني عهدا تقادم باللـــــوى وعصر خلا بين كتيبة إلى الحمى

وحث قناع الصبر وليل العاكف فأصبح دمع كان بأمـــس أعجم

أن ذكرى و المواجد غالبا ما تتبعث في زمن الليل، يطوف بيه الخيال فيثير أشواقه ألى ذلك العهد المتقادم، وذلك العصر الخالي....

4. المعادلة القاسية:

إن ابن الخفاجة، في استذكاراته واسترجاعاته يقوم برحلة في قلب الماضي رحلة لا يصل إليها إلى بعد جهد نفسي مرهق، بعد ليلة مضنية من الأرق و القلق و السهر، رحلة في قلب الليلي البهيمي، حيث يقطع المفاوز المهولة وسط الأخطار المحدقة به، من ذئب الشرس، من برق المستطيل كحية تتلوى ، من جبل شامخ مهيب، من غراب الأسود متربس من ظلمة فاغرة فمها إلى أخر هذه الرموز التي تبعت على الخوف و الفزع، و في خضم هذا الجو المتوتر الكئيب يقوم برحلته إللى الماضي الشباب ، وعهد الفتوى التي ودعه وغالبا مايكون باعث على ذكرى شجو الحمام أو سرحة بالوادي أو البرق يتراءى أو طيف الخيال وهو يدمج كل هذه العناصر بتجربته، ويشركها إحساساته بالزمن، ويتخذها معادلا موضوعيا لما

بداخليه، كما مرة في نماذج سابقة وكما في هذه القصيدة الطويلة التي نجتزىء منها هذه الأبيات يخاطب فيها البرق:

لك الله من البرق تراءى فـــسلم وصافحا رسم بالعذيـــب ومعلما

إذا ما تجاذبنا حيث على سـرى بكيت على حكــم الهوى وتبسما

لقد استهل القصيدة بمخاطبة البرق، ذلك البرق الذي لم يكن صديقا لشاعر، في يوم من أيام بقدر ماهو مستفز لمشاعره، مثير مخاوفه، إذا مقابل بكاء الشاعر وآلامه يبتسم البرق ساخرا، شامتا... يأبي أن يشاركه عواطفه .

إذا جاز لنا أن نستعمل مفهوم بيير ريشار(عمق الشعر) أو عمق الشعراء، قلنا إن عمق إبن خفاجة، أو عمق شعره ، يتجلى في صورة الليل في ذلك امتداد المظلم المخيف، إن أهم مالاحظناه أن الشاعر غالبا مايختار الليل ليقوم برحلاته المجهولة ومغامراته المبهمة، التي قد تكون رحلات داخل أغوار النفس كما اليل اسرى عند ابن خفاجة مليء بالمفاجئات و العجائب، فهو تارة يبدو له كغراب باسط عليه جناحيه، تارة وهو غمد يحتويه، وتارة هو بحر الشاعر غريق فيه، وتارة أحشاء والشاعر جنين فيها كامن كمون السر وتارة هو سريرة الحب في أضلع الليل...إلخ، كل هذه المجموعة من الصور تتحدى في صورة عامة و تنبثق في صورة الأم كما عند باشلار، هي إحاطة الشيء المجهول مخيف ممتد و مظلم ... حيث لا مفر ولا مهرب و لا فجوة(إحاطة الرحم، إحاطة البحر، إحاطة الظلمة...)، ولا يخفي مافي هذا التصوير ليل من أثر تفسير الدين لعالم الأخر و عذاب القبر(الظلمة، المجهول، الرهبة....).

2. الحنين إلى معاهد الطفولة

1.2 الحنين إلى المكان الرمز:

إذا كان الحنين، كموضوع وتجربة ضاربا بجذوره في أعماق الكيان الإنساني، فإنه على مستولى التعبير و التجربة الشعرية ضارب بجذوره في الأدب الأندلسي، كما أننا لا نجد في الأدب العربي من الإلحاح على الموضوع ومن العمق، قدر ما نجده لدى الأندلسيين. فهو مرتبط بالإنسان الأندلسي، بوجوده فوق أرضه وهو يعتبر مشكلا وجوديا بالنسبة لهذا الشاعر، مثلما كان العربي مع أطلاله في العهد الجاهلي، ونجد مجموعة من الشعراء الذين نزحوا عن أوطانهم، لظروف سياسية أو معيشية أو غيرها، وظلوا في حنين دائم إلى مساقط رؤسائهم ومن هؤلاء الرصافي البلنسي الذي نزح يافعا من مدينته بالنسبة إلى مالقة لقد دفعته نفس الظروف التي دفعت قبله ابن حمديس و الحصري الضرير وابن سعيد، وهي الأوضاع السياسية المضطربة بشرق الأندلس و الصراع بين ابن مردنيش و صهره ابن هلال على احتياز بالنسبة يقول عنه ابن الابار:(خروج من وطنه صغيرا، فكان يكثر من الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومة عليه، ولعل ما أجمل ما نظمه الراصفي في الحنين إلى بلده قصيدته الرائية التي يستذكر فيها ماضيه فيه، حيث مسقط رأس، وحيث نشأ ونما وذاق نعيم العيش:

خليلي ما للبيد قد عبقت نشـــــرا وما لرؤوس الركب قد رنحت سكرا

هل المسك مفتوقاا بمدرجة الصبا أم القوم أجردوا من بالنـــسبة ذكرا

خليلي عوجا بي عليـــــها فإنه حديث كبرد الماء في كـبد الحرى

قفا غير مأمورين ولتصـــــديا بها على ثقة للغيث، فاستســقيا القطرا

بجسر معان و الرصـــــــــافة إنه على القطر أن يسقي الرصافة و الجسرا

بلادي التي ريشت قويدمتـي بـــها فريـــــخا وآوتني قـــراراتها و كـــــــرا

مبادىء لين العيش في ريق الصبا أبـــــي الله أن أنســـى لـــــها أبدا ذكرا

أكل مكان راح في الأرض مسقطا لرأس الفــتى يهواه ما عاش مضـــطرا

ففي هذه النداءات المتكررة للخليلين، وفي هذه الاستفهامات المتوالية، في التعجب المتضمن في الاستفهام(أكل مكان...إلخ) في كل تلك الرجوعات المتكررة يكمن جوهر الشعرية، كما قال ياكبسون بحق، وهي عندنا –أي هذه الأسايب– مما يكسب قصيدة الرصافي صفة غنائية مطلقة و إيقاع العالي، وهي بالتالي أساليب تفصح عن هذا الانفجار العاطفي و الانفعال الزائد لدى الشاعر، كما تجلى، دون تصنع أو زخرفة، تجربة الحنين في لغة العفوية تتداعى فيها المعاني و تنثال الذكريات إلى بلد الطفولة ومعاهد اليفاعة.

أما في القسم الثاني من القصيدة، فيركز فيه على وصف طبيعة بلده بالنسبة، وهو وصف محمل باللهفة و الإعجاب و الانبهار، حيث تغدو بالنسبة كعروس دائمة الشباب، وتبدو وقد حفت بها الأنوار والأزهار و المياه، كدرة أو جنة توارت عن أنظاره إلى الأبد، إنها كريعان الشباب الذي تولى. هكذا يمضي الشاعر مازجا بين وصف جمال الطفولة وجمال بالنسبة في لغة رقيقة يكتسيها حزن خافت.. فاربط الراصفي بين الماضي وحلاوة العيش بين معاهد الطفولة وجمال الطبيعة، ويظهر أن واقعه و حاضره في مالقة لم يعوضه عن ذلك الماضي الجميل.

3. الخروج من الجنة

1.3 ابو البقاء الرندي: موطن الصبابة و التذكار

له قصيدة هامة في الحنين الى مسقط راسه، رنده ،و فيها يحملها السلام ، و يسترجع حياته الماضية و معاهد الصبا التي الفها وقضى بها شبابه و عرف لذة اللهو و نعيم العيش ، و التي يتحسر عليها ،بعد ان تلاعبت بها الخطوب ، و تعرضت للصيرورة الزمنية ،فأصبحت مجرد ذكرى موجعة و حبيبة في نفس الوقت ، و مجرد حلم مضى ، مخلفا في نفسه الشجن و التذكار.

بحياة ما مضـــت عـــــرى الازرار بذمام ما في الحـــــــب من اسرار

بلغ لاندلس السلام وصـــــــف له ما في من شوق وبـــــــعد مزار

واذا مررت برندة ذات المـــــــنى و التاج و الديمـــــوس و اللؤازار

سلم على تلك الديار و اهـــــلها فالقوم قومي ، و الديـــار دياري

حيث استوت تلك المدينة معصما و لوى عليها النهر، نصف سوار

و امتد في تلك البطاح امـــــامها ما شئـــت من ظل و مـاء جاري

انه الماضي الذي ذهب الى غير رجعة ، و الوطن الجنة الذي أصبح خبرا من الأخبار، مخلفا في قلب الشاعر الصبابة و التذكار إنه العيش الأخضر الذي تلاعبت به الخطوب، ومعاهد لم يبقى منها سوى التذكار.لقد أصبحت بعيدة كل تلك المواطن، هذا البعد بين الذات و الموضوع المتشوق إليه دلت عليه أسماء الإشارة للبعيد، كل ذلك أصبح يروى بضمير الغائب، لأنه غدا خبرا من الأخبار، ونفيا لهذا البعد على مستوى زمان والمكان، عمد الشاعر إلى خلق واسطة التواصل بين الطرفين، والواسطة هنا هي مخاطب الذي يحمله أشواقه وتحياته وينوب عن الشاعر في تبليغها إلى تلك المواطن والمعاهد. هذا المخاطب وهمي قد يكون واقعيا أو متخيلا: فهناك اندماج تام بين المتخيل و الواقعي، كما بين الذات و الموضوع.

2.3 ابن عميرة: الجنة الضائعة

وإذا انتقلنا إلى ابن عميرة المخزومي وجدنا الغربة عنده جماعية، و الحنين عاما شاملا، و هو يمتزج عنده بالاستصراخ وطلب النجدة، ويرى الأستاذ د. بنشريفة أن(ابن عميرة قد أكثر من القول في هذا الباب، الذي اشتهر فيه الأندلسيون، بحكم النكبات الكبرى التي حلت بهم، حتى ليمكن أن نعده أكثرهم رثاء للفردوس المفقود).

فقد رثى مدينته بالنسبة في عدة قصائد، وبكاها بكاء حارا، متحسرا متفجعا على تلك المنازل التي عصفت بها رياح العدى، وذلك العهد الذي مضى و العيش الأخضر الذي غبر، كما في هذه الأبيات التي تفيض لوعة وحسرة:

يا لك عهدا مضـــــى ومرتبعا كان به العـــيش مثله أخضر

وجيرة منهم الديار خلـــــت ومنزل الصـــــبر بعدهم أقفر

جمعهم دهرهم فكان كـــــمن شح، وألقى بهـــــم كمن بذر

وعاد قلبي من شرق أندلـــس عيد أسى فتـــــه وما فتـــــر

فأين منا منازل عصـــــــفت ريح عليها من العدى صرصر

ودون شقر، ودون زرقـــــــته أزرق يحكي قنـــــــاه أو أشقر

إن ابن عميرة كغيره من شعراء هذا العهد، عندما يعود بذاكرته إلى الوراء إلى الوطن المفقود، تتراءى له طبيعة بلاده كقطعة من الجنة التي حرم منها مواطنوه وأصبحوا يكتوون بنار الغربة التي تتوقد وتتوهج باستمرار في أعماقهم.

إن ابن عميرة أكثر شعراء هذا العهد ذكرا للتمزق الذي تعرض له الأندلسيون و أكثرهم إلحاحا على وصف مظاهر التشتت والفرقة و التوزع في شتى البلدان ،

مستغلا مواقف دينية في غالب الأحيان، يتمثل في تلك المقارنة بين خروج آدم من الجنة وخروج الأندلسيين من بلادهم، وكما في هذه القصيدة التي يصور فيها هذا التشتت بأهل المحصب:

كفى حزنا أنا كأهل محـــصب بكـــــل طريق قد نفرنا وننفر

وأن كلينا من مشوق وشـــائق بنار اغتراب، في حشاه تسـعر

إن صورة أهل المحصب وهم يرمون الجمار، في حركات غير منتظمة، جيئة وذهابا، كصورة هؤلاء الأندلسيين الذين أصبحوا ينفرون بكل طريق، لا يعرفون لهم اتجاها معينا لما استولى عليهم من الجزع والروع.

3.3 حازم القرطاجني:

أما حازم القرطاجني، فله قصائد عديدة في التشوق إلى الأندلس، خاصة قصيدته التي تشوق فيها بلده مرسية، حيث مدفن أبيه، فاعنده كما عند ابن الابار، وابن عميرة يمتزج الحنين بالاستصراخ، كما يمتزج ويتداخل بالمدح، خاصة القصائد التي نظمها في مدح المستنصر الحفصي، ومن خلال مقدماتها الغزلية التي تمتزج فيها الأشواق إلى المحبوبة بالشوق للوطن ومعاهد الشباب، ويتعانق فيها الحنين إلى المرأة كرمز بالحنين إلى ذكريات الماضية مطلقا، ويتجلى ذلك مثلا في مقدمته الغزلية، في مدح أبي زكريا الحفصي:

أجدت بمن أهوى بكورا ركائـــبه فليلي مقيم ليس تســري ركائبه

كأن بشهب الأفق ما بي فكـــلها يحاذر أن تخفيه عنـــه مغاربه

ففيها كثير من الرمز إلى أشواقه وغربته التي ألفها بعد أن اتخذ الصبر فلسفة له لمواجهة صروف الزمان، كما تتردد كلمات لها مدلول خاص في هذا المجال، كالنوى و البهاد و الأيام، وعواقب الدهر مما يكشف أنها ليست مجرد غزل تقليدي وعادي، إنما هو جزء لا يتجزأ من تجربة الغربة التي عاناها الشاعر بعيدا عن وطنه.

أما مقصورته التي قصرها على مدح المستنصر الحفصي، قد اتخذ منها حازم مجالا لذكر أيامه الخوالي بالأمس حيث ينزع به الشوق إلى تلك المواطن و المعاهد التي خلفها وراءه، ويذكر مرابع شبابه ولهوه وأيام لذاته، فيشتد حنينه وتهيج أحزانه وذكرياته عن الحب ، عن أيام الصبابة الذاهبة و يصف شوقه إلى المنازل القديمة و لذائذه وهواية القنص والصيد. وكل الذكريات، فيحاكي بشعره تلك الحياة و يسترجع تلك اللوحات، ثم انتقل إلى وصف حبيبته و التغزل بها، باكيا حبه الضائع، متأسفا على انصرام أيام الحب و النعيم و إقبال عهد التعاسة و الأسى، متحسرا على وطنه وخروجه منه إلى المهجر، ثم يصف الرحلة وعذابها، و تعرضه للأخطار، وما نال دوابه من إجهاد شديد وهزال فادح، قبل أن يصل إلى الممدوح.

4.3 ابن الأبار: بالنسية مدينة العيش الأخضر

ابن الأبار، مثله مثل حازم وابن عميرة، يمتزج الحنين لديه بالاستصراخ فبعد الحصار، الذي تعرضت له بالنسية سنة635هـ، لم يجد الأندلسيون من وسيلة للخلاص سوى الاستنجاد بأبي زكريا الحفصي أمير تونس، وقبل سقوط هذه المدينة، توجه ابن الأبار على رأس سفارة من قبل زيان، أمير بالنسية و أنشد أمير الحفصي بنيته المشهورة طالبا منه النجدة، عازفا على الوتر الديني لاستمالته والشرف و العرض و غيرها من الرموز...وفيه يبكي ما حل بالمدينة من خراب، و بأهلها من

ذلة و بمعالمها الدينية من تدنيس ونسائها من انتهاك للأعراض، وفيها وهذا المهم، يحن إلى ماضي المدينة ويتلهف على نعيم العيش الذي عزب و غرب:

وأربعا نمنمت أيدي الربيـــــــع لها ما شئت من خلع موشـــــية وكسى

كانت حدائق لأحـــــداق مـــــونقة فصوح النضر من أدواحها و عسى

وحال ما حولـــــها من منظر عجب يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا عيث الدبى في مــغانيها التي كبسا

وابتز بزتهـــــــا مما تحيفـــــــها تحيف الأسد الضـــــاري لما افترس

إنها مدينة العيش الأخضر، ألبسها الربيع حللا مزركشة وثوبا قشيبا، كانت حدائق للنواظر، تحتوي على كل منظر بهيج، فإذا بجيش الكفر يعيث فيها، وتمحي هكذا يقارن الشاعر بين الماضي المدينة المشرق وحاضرها الكئيب المقفر، متلهفا متحسرا على ذلك الماضي، تلك اللهفة التي تتحول إلى آهات و تأوهات مكررة، تجلى حزن الشاعر العميق وأساه المدمر، لما أصاب تلك المدينة.

- **جوانب فنية في هذه القصائد:**

يتضح مما تقدم أن الحنين في عهد الموحدي الأول توجه إلى المعاهد، و أماكن الذكريات، ووصف جمال الطبيعة و المدينة الأصلية، مسقط رأس الشاعر، أما في العهد الأخيرة، فقد امتزج بالاستصراخ و بكاء المدن المنكوبة، أما صورة الأندلس، الوطن المغادر فقد تمثلت في كل هذه القصائد بصورة الجنة الضائعة ، كما أن هذه القصائد تتراوح على العموم بين البساطة في التناول و التعبير إلى حد النثرية كما عند ابن سعيد، وبين العمق وحرارة العاطف وتوظيف الرمز كما في شعر

ابن عميرة وابن الابار وحازم، إلا أن هذا الأخير أكثرهم إشارة، حيث تستدعي معانيه إعمال الذهن وكذلك لبعض الغموض المتولد من كثرة التوظيف للضمائر وغموض العائد فيها، وكذلك للصنعة و التركيب الخاص للغة هذا الشاعر. أما حنينيات الرصافي البلنسي، فتمتاز كما قال إحسان عباس بالرقة الآسرة، لكن كل هذه القصائد بصفة عامة مشحونة بحرارة التجربة وتوهجها، ويمكن تلخيص بعض الثوابت الدلالية لهذه القصائد كما يلي:

- هناك تواجد فريد للماضي مع الحاضر، وكأن في هذا التواجد انتصارا على الزمن وإحياء له، مما يكشف عن الرغبة الدفينة في الخلود، الضاربة بجذورها في أعماق كل إنسان
- إن استرجاع الماضي شعرا، بواسطة الذاكرة كأن فيه إيهام باستعادته فيخلق ذلك الوهم و السرور و الفرحة، لكنه سرور متزوج بالحسرة الدائمة
- إن الحسرة ميزة القصائد الحنينية عامة، لأن التواجد محكوم بالتقاطع، فالزمن الشعري يتقاطع مع الزمن الواقعي، لكنه يلغى الفواصل مستخدما أدوات وصيغا تفيد الاستمرارية و الحضور.
- 4- تمزق الشاعر بين الماضي المتحسر عليه و الواق المرفوض استدعى لغة إنشائية تتراوح بين أساليب متباينة متوترة مشحونة بالانفعال، إظهارا لتوتر الشاعر وتمزقه، وهي الاستفهام و التمني و التراجي و النداء...وكلها خرجت عن معانيها اللغوية الإبلاغية، لتوظف في معان أخرى استدعاها سياق التفجع و الندب و البكاء و الحسرة و الإنكار و التقريع و السخرية و التعجيز....إلخ، سخرية من الأقدار و الأوضاع و الأحوال المتناقضة و المفارقة المفجعة للزمن، سخرية من عبثية الزمن.

- 5-هذه المقاومة للزمن عن طريق الشعر، وهذا التثبيت للتجربة في الوجدان، المبدع و المتلقي معا استدعى لغة خاصة وأدوات متميزة أهمها التكرار. فالتكرار، كما يقول(ياكبسون) في كل مستويات اللسان ، يكمن جوهر التقنية الفنية الخاصة بالشعر في الرجوعات المتكررة.

وفي هذا السياق، وعن أهمية هذا المكون في الشعر، يقول شتايجر في كتابه (أسس الشعرية) إن ما يحفظ الشعر الغنائي من خطر الحلل إنما هو التكرار، لكن نوعا خاصا من التكرار هو الذي يعطي وحدة لكل أنواع الشعر وأكثرها شيوعا هو الإيقاع.)

المبحث الرابع: بحثا عن البديل

1. الحنين إلى ربوع الماضي

من هؤلاء الراحلين الذين ذكرهم ابن الخطيب ابن جزي الكلبي الغرناطي فقد ضرب بالسياط ظلما، حسبما ذكره ابن الأحمر، و أورد له قصيدة في الحنين وشكوى من أهل غرناطة و غدر الزمان نجتزي منها بهذين البيتين:[1]

ذهبت حشاشة قلبي المصـــدوع بين السلام، ووقـــفة التوديع

ما أنصفه الأحباب يوم وداعهم صب يحدث نفـــسه برجوع

وأورد له ابن الخطيب كذلك قصيدة طويلة استعارة أشطارها الثانية من أمرئ القيس:

أقول لحزمي أو لصالح أعمالي ألا عم صباحا أيها الطلل البالي

[1] فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص 268.

وهي طويلة تحدث فيها الشيب و الدهر و الزمان المتحول و تشوق فيها إلى الديار المقدسة، حيث قبر الرسول و التربة المقدسة.

ومن الذين استقروا بالمشرق أيضا، القاضي إسماعيل بن هانىء يتوشق إلى دياره، ويحن إلى وطنه و يبكي الأطلال و الربع الخالي:

أتعرف ربعا للتواصل قـــــاويا عفت آية إلا الصـــوى و الأواريـا

تعاور فيها كل عاس مجـــلجل وجرت عليه الرامـــسات الســوافيا

بكت برباه للسحاب مـــــدامع فلما وهت، ألقت علـــيه المـــآقيا

ولما دعا داعي الفراق و أجهشت قلوب تلقـــت من يـــد الشوق فاريا

وأصبح داعي الشوق لأيا مسيره وداعي التنائي ناعب السرب ضاويا

ظللت ترجي الوصل منه ولم تكن له قبل إلمـــام التفـــــارق راجيا

وعن الكتاب أبي اسحاق ابراهيم الساحلي، يقول ابن الخطيب: حواب آفاق ومحالف الرفاق ومنفق شعر الشعر كل النفاق..ولما أصاب الكساد شعره فضل الارتحال إلى ملك السودان فحل بها محمل الخمر في القار.

هكذا بكى هؤلاء الشعراء ذلك الماضي الذي يندى غضارة، ماضي الشباب و الهوى، واجتماع شمل الأحباب، وتحسروا على أيام النعيم المولي إلى غير رجعة، و شكوا الوحدة و الكهولة و الغربة يعيدون و يكررون نفس المضمون و الصيغ و الصور تقريبا. إلا أن أهم ظاهرة نلمسها في هذه الأشعار هي اصطناع الرمز و الإشارة بتكرارية و ترديد في هذه القصائد، سواء في ذكر الأماكن التي هي غالبا أماكن بالجزيرة العربية، أو في ذكر أسماء نساء تمثل بدورها رموزا في الوجدان

العربي، كهند وليلى ودعد....إلخ، ولا نبعد إذا قلنا إن شكوى تلك المواجد المبهمة والأشواق المطلقة إلى أزمنة و أمكنة رمزية ونساء رمزيات هو من تأثير قصيدة التصوف،خاصة كما نضجت و تركزت عند شاعر صوفي الكبير هو محي الدين بن عربي في مواجده وأشواقه إلى الأطلال والإحساس القوي الذي يلمس في أشعاره بجبورت الزمن وقوة الأقدار وحتمية الصيرورة ما سبق أن أسميناه بالاغتراب في التجربة الشعرية وهي غربة تضاف إلى غربة البين عن الوطن والإحساس بالضياع وفقدان العزة والأمن، شوق إلى بديل كالمعجزة.

2. يوسف الثالث

إن تجربة الغربة والحنين عند هذا الشاعر، تختلف عنها عند الشعراء الآخرين مضمونا وتعبيرا، لقد أبعدت المؤامرات و الدسائس المحبوكة في الظلام هذا الملك الشاب عن مدينته الأثيرة: غرناطة مقر ملكه وأهله وأحبابه، وتعرض للإبعاد والسجن و الغربة، فعبر عن هذه التجربة في قصائد من أجمل ما نظم في هذا العهد، تفيض رقة وعذوبة إلى مدينة غرناطة، والأماكن التي كان يرتادها هناك ويحن إلى أهله ومن يحب في تلميح وإشارة دون تصريح

وأغلب شعر هذا الملك في الحنين و الذكريات، ووصف ما تعرض له من محنة السجن، و الإبعاد عن ملكه، و الشكوى من أهله وأهل زمانه وشعره لصيق بذاته، فكأن حكاية لمراحل حياته وتسجيل فني للأحداث التي عاشها و التجارب التي مر بها، وأهمها تجربة الغربة والإبعاد و هي تجربة واقعية عاشها الشاعر و ليس مجرد تكلف لها أو تعمل .

إنه زمن قل فيه الوفاء وعدمت فيه الذمة والعهد مع وفاء الشاعر وإخلاصه:

فيا لك صبا ما أشد وفـــاءه على زمـــتن فيه الوفاء قليـل

إنه الزمن الغادر الذي سلب شبيبة الشاعر، وأحال سواد شعره إلى بياض الشيب. لقد خاض وقائع وأحاثا شيبته وهو مازال في ريعان الشباب، وتحمل ما تعجز الجبال عن حمله، كما في نفس القصيدة، وفي أخرى:

م اشبت من سن ولكن أشابتـــني صروف زمان سوف يلفى بـــه الجبر

وإن زمانـــــا قد أحال شبـــيبتي لأجدر أن يعزى إلـى فعــله الغــدر

على أن هذا الدهر ما زال حاسدا كما قد علمتم، من له الصيت والذكر

لذلك رمانـــــــي بالبعاد سفاهة ولكن لا يبقى علـــــى حاله دهــر

فالشاعر يشكو هنا أهل الحسد و الغدر والمكائد التي دبرت ضده في الخفاء، لكنه متيقن في النهاية من عودة الأمور لصالحه فهو يؤمن بجدلية الزمان وتقلب الأحوال و تناقض الأمور، فلا يأس من قبض الزمان، إذا سوف يعقبه البسط لا محالة وهو في هذه الرؤية يختلف عن رؤية كل الشعراء الذين عرضنا لهم حيث التشاؤم الدائم الإيمان بلا رجعة الماضي، وبسير الزمن الدائما من الأحسن إلى الأسوأ فهو يعاكس هذه الرؤية ، ولكن قبل أن يبسط هذا الزمان للشاعر وقبل أن يعود إلى ملكه وذويه ومدينته، وينتصر على قوى لخديعة و المكر، قبل ذلك كيف عبر الشاعر لواعجه، لواعج الغربة و الحنين، وما هي المحاور التي دار حولها؟

إن أهم ما يلفت الانتباه في هذه التجربة تمحورها حول ما يلي:

- ✓ –الحنين إلى غرناطة و مغانيها
- ✓ –الحنين إلى أهله وعتابهم

✓ –ثم الحنين إلى ما يحب بغرناطة

قد يتغلب جانب على آخر في القصيدة ما، ولكن غالبا ما تأتي مجتمعة، ممتزجة، في تجربة متكاملة، يتلخص في ذلك الحنين الرقيق المطبوع بالحسرة و الأسى إلى المدينة الرمز، ومن بها من الأهل والأحباء.

إن غرناطة ومعاهدها تستولي على وجدان الشاعر في غير هذه القصيدة، إنه لا يفتأ يردد تلك الأماكن التي ألفها وعرف فيها الهوى، كتاج السبيكة، و المصلى ونجد وغيرها، حيث كانت الصبابة تغاديه و الهيام يرافقه.

حنين إلى الألفة المبددة:

إذا كان حنين الشاعر في القصائد السابقة حنينا إلى المكان و الزمان الذي خلا من الأحباب والآلاف، فإنه في قصيدة أخرى بكى وحن إلى القصر الذي خلا من خلا من ملك الشاعر، ديار خلت منه فأصبحت أطلالا وفيها يشكو الغدر الأحباب ووفاءهم الذي يحول في زمن قل فيه الوفاء و تمزقت فيه الألفة وتبدد الشمل يشكو غربة الدار، و النفس و الهوى، و يتمني لقاء الحبيب الذي أتلف قلبه حبا، باثا شكواه للرياح العاصفات.

ألا ليت شعري و الزمـــان بخـــيل يخيـــــب راج تارة وينـــيل

أيقضـــى لشمـــل قد تبدد ألفـــة ويرجى لوصل قد تقضى وصول

وهل لغريب الدار و النفس و الهوى إلى نيله لقيا الحبيـــــب سبيل

يحمل أنفاس الجنـــوب رســـائلا تضرمها بالشوق وهـــــي بليل

ويشكو لها ما قد أكن من الهـوى فتفهم ما يشكـــو لها ويقـــول

وإن هبت الريح الشمـــال رأيتـــه يميد بـــــها شوقا لكم ويميــل

ويسكر منها إذ تمــر كأنـــــها تدار عليه بالشمـــتال شمــول

فإن سدت الأبواب بينـــي وبينكم ستقضي منانا شمال وقبـــول

فبالله يا ريح الجنوب تأملـــــي أيلقى سلامي من حبيب القبول

وإن جلت بالحمراء فأقري تحيتي ديار خلت مني فهي طلـــول

وهبي على القصر الكبير عليلة فإن به أهل الحبيب حلـــــول

وقولي غريب، أتلف الحب قلبه وشوق بأحناء الضلوع يجــول

لقد عد صاحب الديوان هذه القصيدة من مهبات، و الأبكار المحجبات كما عددها الدكتور محمد بنشريفة من روائعه، قائلا:(إن له قصائد رقيقة في الحنين، منها هذه اللامية، وحق لهما ذلك فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته بلغة رقيقة، وتوليد معان وصور وتعابير خاصة مغرقة في الذاتية، مما أكسبها تميزا وخصوصية، يمكن إجمالها في النقط التالية:

- فهو يبدأ بالتمني ثم الاستفهام في البيت الثاني، وهما من الأساليب والصيغ الأكثر ذاتية وإنشائية، والأكثر تعبيرا عن مضمون الحنين.
- وفي استفهام عن الشمل الذي بدد ألفة جمالية ما بعدها جمالية، فالتميز هنا ألفة وظف ببراعة فائقة فالشمل المبدد مؤثر في المتلقي، لكن الشاعر عندما يميزه يكسبه وظيفة جمالية عالية وليست توصيلية فقط.

- كما أنه في بكائه على الديار التي خلت منه إغراق في هذه الذاتية فالمعهود أن يبكي الشعراء المنازل التي خلت من الغيرة أما هو فهو المنازل التي خلت منه فأصبحت أطلالا دراسة.
- وعندما يتخذ الشاعر الرياح و العواصف، واسطة لنقل أشواقه ولواعجه، فذلك يدل على منتهى الوحدة و الاغتراب الذي يستشعره، ومثل هذه الوسائط تعتبر رموزا تقوم مقام الخليلين المصاحبين في الرحلة التقليدية.

لعل أهم ملمح فني هو هذا البروز لروح الفروسية في شعر الملك الشاعر، تلك الروح التي تتجلى في: التوزع بين الحب/والواجب، الصراع بين العقل و القلب، ثم الثبات على الحب والإخلاص للمحبوب و التعرض للأخطار ومحاولة إيجاد التعادل بين هذه الأطراف، وكذلك في طريقة توظيفه للغة، ولبعض الصيغ و الأساليب حيث يكتسب أبعادا جمالية خاصة، انبثاقا من التجربة وحرارة الانفعال كالتمييز والاستفهام والنداء و بعض الصيغ التعبيرية الأخرى، التي تكتسب جماليتها داخل سياق التجربة وليس خارجها، فالإحساس الجمالي يند عن معيار و القالب فكل شاعر له وعيه الخاص بالوجود و الكون، وطريقته في إدراك العالم.ووفق ذلك الإدراك والإحساس يخلق لغته وخصوصيته، في تكييف تلك اللغة.

أما عنصر الواسطة فهي ظاهرة عامة في قصائد الحنين، كما مر عند شعراء آخرين غير شاعرنا هذا، فقد لمسناها عند ابن زيدون وابن دراج وابن الخطيب وابن خفاجة وغيرهم....

3. ابن الصباغ

لقد دار معظم الشعر ابن الصباغ إن لم نقل كله حول الحنين الديني و بذلك حقق ديوانه، تلك وحدة الموضوعية التي أصبحت اليوم، مبتغى الشعراء محدثين،

ولعل أهم(تيمة) في حنين ابن الصباغ هي تلك الذالة مستشعرة، ذالة الحرمان من زيارة، والتخلف عن الركب، وتلك الدروشة المهيمنة في كل قصائده و المهانة والإفتقار وكل النعوت نقص والضعف التي يسم بها نفسه، في تكرارية، تشكل ظاهرة موضوعية في شعره، وهو ينظر إلى الزمن نظرة تشائمية حادة مثله في ذلك مثل سائر الشعراء الذين عرضنا لهم، فالزمن يتقدم دائما إلى الأسوء وهم مثله مثل ابن خفاجة، لا تعني له الزيادة في عمر الإنسان سوى النقص و الضعف والشيب.

وفي القصائد الأخرى يصرح بهذه الأشواق المبهمة ويعلن حبه لرسول وحنينه إلى البيت المقدس، ويتحسر إذا هو لم يحقق أمل زيارة :

لقد طال شوقي للحبيب وقبـره فيا ليت شعري هل يتاح لي اللقاء

تميل بي الأشواق حب لذكـره إذا ماسرى البرق عديـــب وأبــرقا

ويطربني لحن السماع فأنثنـي كأني خصن بصبـــابة أورقـــا

فوا حسرة إن لم أفوز بصالهم ووا أسفا إن لم يكـــن في ملتقـا

الماضي الضائع:

أن حسرة على الماضي، و الأيام التي مضت في العبث والشباب الذي لم يغنيه شيئا والندم على مالم يحققه الشاعر يتكرر، في كل قصائد، بنفس مضمون و نفس التعبير أحيانا، وهو يخلع هذا الإحساس هى مظاهر الطبيعة لتتحدى معه فيه وهي مبعث الحنين ومهيج الأشواق بالنسيم يشجيه الوقت السحر و نغمة الحمام فوق الأغصان تضنيه والآس و الورد و الخيري ينعشه و الأقحوان مع النسرين إن الطبيعة تشكل مصدر الحزن بدل أن تكون مصدر الإطراب بل إنه يشبه نفسه في القصيدة السالفة بصورة الغصن الذي يروق صبابهم لقد سلفت أمثاله من هذا التميز

الذي يضفي على الصورة جمال وعمقا والإحاء و لعل من أهم قصائده الحنينيته هذه القصيدة التي قدم لها بما يلي:(ومما نظمه في إستلاء وجد عند تنسم نفحات النجدة و هو من النظام الذي امتزج فيه الغزل بالزهد فجاء أحلى من شهد قوله):

تنســـــم هذه النفـــــحات نجـد تأرج عرفها فأثـار وجـــــدي

سرت في أرضـــــهم سحرا فخلنا فتيق المسك خالط ماء الـورد

تذكرني صـــبابتي صبـــــــها فتهمي أدمعي سحا بخـــدي

إذا سجعت بدوح البان الــورق أحن إلى مغاني أهـــــل ودي

وأن صدحت بسرحة جــزع واد يذكرني الوفاء قديم عهـــــدي

فيا شادي الغصون أصخ قليلا أبثك يا حـــــمام ألـيم فقدي

ففيها الحنين إلى العهد القديم وفيها الحزن عميق على مافات قصيدة لا تجمع بين السياق مختلفين الزهد و الغزل كما جاء في تمهيد لهل بقدر ما تطرحه و إشكالية أعمق هي إشكالية الزمن.

ب- الاغتراب الروحي:

هكذا يظل ابن الصباغ كبقية الشعراء المتصوفين يعاني انفصاما بين الروح و البدن فبواسطة الروح ينتقل بين المواطن، ويقطع المسافات و الأزمنة إلى الماضي و المستقبل في نفس الآن، رحلة تائهة في كل اتجاه مازجا بين الغزل و الوجد على الطريقة المتصوفة كما في هذه القصيدة التي قدم لها هكذا:(وهو من زهد المنظم على طريقة الغزل و التصوف)، حيث يتداخل النص الديني بالدنيوي المطلق بالواقع، وحيث يتعانق الممكن من المستحيل:

يهيج غرام الصب إن هبت الصبا فيذكر أوطانا بها ألـــــف الصبا

فيا معهد الأحباب والصب نـازح متى يرد الضمآن في الري مشربا

ويا دار سلمى و التباعد بيـــننا متى الدهر يدني منك صبا معذبا

ففيها يحن إلى أوطان وديار رمزية، وامرأة رمزية(سلمى) حيث تهيج رياح الصبا غرامه وأشواقه، زمن السحر، وهو زمن الأشجان الدائمة لدى الشاعر، وزمن ذكرى المعاهد الخالية، هناك حيث أعلام المحصب التي أصبح يتلهف لها، فالشاعر يتخيل إنه عاش فعلا في تلك الأماكن الحجازية، وبها قضى صباه، وعرف صبابته، وهو حينما يفعل ذلك يمزج بين الواقعي/ المتخيل، بين الدنيوي/ المقدس، يسعى إلى تحقيق ما لا يتحقق إنها أحلامه الباطنية وأشواقه المطلقة، فحنين الشاعر الصبا و الشباب في تلك الأماكن هو حنين إلى رمز النبوة، وهو بالتالي حنينه إلى العيش في ذلك الزمان الماضي، زمرة النبوة.

4. ابن خاتمة

تظهر أشعار ابن خاتمة أنه لا يجد غضاضة في الجمع بين الحنين إلى قبر الرسول و الديار المقدسة وبين الحنين إلى اللذائذ الممنعة في ماديتها وحسيتها وقد تفطن الشاعر إلى هذه الازدواجية، واستنكرها في أول قصيدة نصادفها في الديوان:

تروم رضاهم، ثم تأتي المناهيا أحب وعصيان؟ لقد ظلت لاهـيا

تكنيت عبدا، ثم أكننت إمــرة أعبد وأمر؟ ما أخالك صــاحيا

ففي هذه القصيدة يستنكر ما هو فيه من صبابة وتصابي، ثم في ندم ونصح، يخاطب المرأة التي تحاول أن تغويه، وتشده إلى الدنيا، ويطلب منها أن تدعه فقد

فتن منذ زمن بدنيا جذبت أعنته/ وعليه أن يبكي الآن بعد أن وخط الشيب رأسه، ثم يختم القصيدة بالحنين، والندم على الماضي مشبها نفسه بالثكلى التي فقدت وحيدها، بل إن وجده أعظم من وجدها لفرط ذنوبه وكبر جنايته، ثم في لهفة يتفجع ويتأسف على شباب الذي مضى دون طائل نادما، عازما على التوبة.

فالشاعر يعترف بعدم النهوض إلى الحجاز وتأدية الواجد وهو يشعر بالإبعاد و الإقصاء و النبذ مثله في ذلك مثل ابن الصباغ و ابن الخطيب، كما في القصيدة التي حن فيها حنينا ضارعا إلى الرسول الشفيع الذي التجأ إلى حماه:

إليك يا ملجأ الراجين قد نزعت نوازع بي إن تستقـــص لا تقس

من سفح دمع بسفح الخد مطرد وقدح وجد بطي الصدر منعكس

ونهب شوق أباح السقم منهبتي فالجسم في تعب و القلب في تعس

فهل سبيل تؤدي حلف قاصية إلى مقر الهدى من روضة القدس

إن ابن خاتمة يقر بأن ذنوبه هي التي أقعدته عن الزيارة و تلبية الواجب، ويتمنى في لهفة أن يحقق رغبته العارمة في تعفير خده بتراب الروضة الشريفة:

ياليت شعري وأيـــامي تثبطنـــي ومن سقته كؤوس العجز لم يكس

هل أكحل الجفن من ترب به عبق وأرشف الثغر من إظلاله اللعس

وأبلغ الخد من تعفيـره وطـــرا شوقا لمواطىء نعل طاهر قدسي

إليك يارب، شكوى مبـــعد قعدت به الخطايا فلم ينهض لملتـــمس

فالبعد، والمقصي و المطرود، كلها تشكل ثايتا دلاليا واحدا، ومؤشرا أسلوبيا يتردد في هذه القصائد.

نجديات: الاغتراب في الزمان و المكان

إن هذه النجديات أو هذا الحنين النجدي المبهم يتردد باستمرار في قصائد الشاعر، كما في قصائد الحنين الديني العامة: لكنها عند ابن خاتمة يكتسب الرمزية الخاصة:

أحن إلى نـــجد إذا ذكـــــرت نجد ويعتاد قلبي من تذكارهـــا وجد

ويعتل جسمي أن يـــهب نسيــمها عليلا له بالأثل أثل الحمى عـهد

وما مقصدي نجدا ولا ذكر عهودها ولكن لجري من غدت داره نجده

وهو في هذه الغزليات المبهمة الممتزجة بالأشواق إلى نجد، كما عند ابن الخطيب يعلن أن هدفه ليس هندا أو سلمى وسائر المتغزل فيهن، وأن المقصود من سكن نجدا أو حل بتلك الديار فتلك مجرد أقنعة وأسماء وإشارية رمزية، فكأن هناك نصا غائبا يلمح ويشير إليه لإشارة فقط كأن هناك ضغطا على الشاعر ألا يصرح، أن يكتفي بالكناية، و التلميح و الرمز.

3. ابن الخطيب

أن مفهوم الشعر عند ابن الخطيب هو حكاية اللواعج والأشجان و الحنين إلى العهد الذي تقضلى و الزمن الماضي في الصبا و التصابي، وهذا هو تفس المنطلق عند حازم القرطاجني في فهم دوافع الشعر الحقيقة و الأصيلة، وهو نفس المفهوم الذي وجدناه عند ابن خفاجة أيضا عندما جعل موضوع الحنين وندب الفئات

و الأسف على زمن الماضي، أهم وظيفة للشعر، فايتمحور الحنين عند ابن خطيب حول أربعة محاور:

- الحنين إلى الشباب و الزمن الماضي عامة
- الحنين إلى الديار والأطلال مطلقا
- الحنين الديني إلى ديار مقدسة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يشكل قسم الأكبر
- حنين الواقعي إلى غرناطة وأهله وعشيرته

وما يلاحظ أن محور حنين الديني يستقطب غالبا بقية محاور الأخرى وندرج ضمنه كل أشكال حنين فيصير الحنين إلى أطلال وديار جزء من الحنين إلى نجد و تهامة و القبر المقدس

1. حنين إلى الأطلال و الديار:

كيف يتداخل ديني بالدنيوي ؟ كيف يتداخل نص الحنين إلى أطلا وديار بأماكن نجدية؟ كيف يتمازج نص الحنين إلى الأحبة و الشباب بالحنين إلى الديار المقدسة و عهد النبوة؟ هذه خاصية نجدها عند ابن خطيب فحنين ديني عنده يستقطب كل صور الحنين من حنين إلى هوى و المرأة الحنين إلى الأهل و العشيرة و الألاف ...إلخ فلم اندلس إلى المشرق يحقق ابن الخطيب رحلة زمانية و النمانية من زمن الحاضر إلى الماضي و من ماضي القريب إلى الماضي البعيد الرحلة تنقص فيها روح عن الجسم يتحقق فيها مالا يتحقق و يربط فيها بين ما لا يرتبط زمن النبوة /بزمن أنسان العادي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم/ بواقع الشاعر بالأندلس رحلة تتداخل فيها الأمكنة و الأزمنة كما تتداخل الأشواق المتباينة المبهمة وسيلة على نهج شعراء الأطلال فهو يستوقف رفقين و وسائل الأطلال عن فعل

زمن بها بأهلها و بعهدها كما في هذه المقدمة الطلالية التي مدح بها ابي الحجاج اليوم بيعته:

قفا فاسألا في ساحة الأجرع الفرد معالم محتها غمـــائم من بـــعد

وعجى عليها فسأل عن أنيســها وأن كان تسأل معالم لا يــجدي

ولكنها نفس تجيـــش و نفثتــة تروح من بث و تطفيء من وجد

ففيها الحنين إلى ديار والأحبة تمتزج بالحنين إلى ديار المقدسة حيث تربط بين مرابع ألافه و عهد أحبته و بين حب محمد و معاهد الحجاز وأماكن النوبة إنها عهود وأمكنة تبعث فيه وجد و شجن من أجل إطفاء أشواقه سيتوقف و يستفهم ويسأل خليلين

2. بنية انفصام: غربة الروح عن الجسم

إن تداخل بين خطابات و تقاطع بين السياقات من أهم خصائص الخطاب الصوفي وبما أننا ندرس ابن خطيب فإن هذه ظاهرة من أجل ما تتوضح عنده في نصوص دينية تقاطع المؤسس/بالمقدس النبوي/ بالأخروي و الجسدي/ بالنفسي المادي/بالروح الشرقي/ بالغرب الماضي/ بالحاضر مدنس/بالمظهر.

كما يتضح في هذه القصيدة التي ليست دينية في نظر حسب التقديم الذي قدمت به و هو كالتالي:(الخاطب بها كبير الوطن مراكشي رئيس عامر بن محمد بن علي وقد أعدت حركة إليه لإثر بنائه ببنت السلطان صاحب تونس و انصرافه إلى مدينة فاس يجري الدنيا ورائه)

فرغم هذا المقام الذي تطلب مقالا مناسبا و خطابا خاصة فإنه قدم لقصيدته هذه مقدمة طويلة في الحنين وقد عاده عيد فذكره بجيرة العهد القديم أولئك الذي نأوا و لم يعد بينه و بينهم مفاوز و قفار شاسعة وكأنه لم يعشق في تلك الربوع التي أصبحت أطلالا عفت عن جواب و حارث و نأنه لم يقف بها ذات اليوم وما أطلالا هنا سوى أطلال نفسه و ما صمتها سوى آساه صامت:

أهاجتك ذكرى من خليط المــعهد سمحت لها بالدمع في كل مشهد

وعادك العيد من تــذكر الجــيرة نأوى بالذي أســـائرته من تجلد

حنانك من نفس شعاع و المهجة إذا لم يحن من بعدهـم فكأن قد

أجل إنه أسى نفس الذي لا يقوي على رد فائت و كما قال يا نكل غيتش فإن حصرة هي كل ما تبقى فالحتمية الزمنية تسير في اتجاه وحيد دائما و لا يملك الإنسان ايزائها سوى الحسرة مرددة.

ثم بعد قسم الأطلال يدلي بقسم الثاني بنظرياته في حياة الدنيا و الرزق و الناس يحذر من دنيا الغرارة و يزهد فيها إلى أن يصل إلى المدح.

3- عقدة التخلف عن الركب أو إشكالية الذنب/الغفران:

لعل أكبر عقدة تسيطر على الشاعر، وتسبب له توترا حادا هي عقدة التخلف عن ركب الحجاج فوز الغير، وحرمان وحده دون سائر الناس، هذا الإحساس يكسر التوازن النفسي للشاعر، ويشعره بالذالة و الصغار أمام تفوق الغير، إنه، دوما يغبط أولئك الزائرين الذين يفوزون بالغنم فتمحى الذنوب وتغتفر الأوزار، وهذا ما لا يحققه فيستولي عليه الندم و الحسرة ودائما تتردد نفس الموجهة في هذه القصائد بين

ضمير الجماعة و ضمير الذات وتتكرر مثل هذه الثنائيات: الذنب/الغفران، الفوز/الخسران، الضلالة/الهدى.

تلك هي إشكالية الدينية التي يعاني منها الشاعر في كل شعره الديني:

فازو بما حـــــازوا كراما فإنـــما زيارة خير الخـلق من أعظم الغنم

كأني بقومي حين حلـــوا حلالـها وأعينـــــهم إذاك أجفانهـــم تهم

يكبون للاذقـــان في عرصاتـــها سلاما وتقبـيلا على ذلك الرســم

فيعفى عن الأزوار في ذلك الحمى وتغتفر الآثار في ذلـــك اللـــثم

فلله در القوم فيها وقد غـــــــدوا ضيوفا بمثوى سيد العرب و العجم

إن هذا المضمون يتكرر عند ابن الخطيب في كل قصائد الحنين الديني، كما في هذه القصيدة الميلادية:

أثار سناها و الديار نـــوازح سنا بارق من مطلع الوحي لائح

وكائب تستف الفلا فكأنـــها سفائن في بحر الراب ســـوابح

ففيها يصف الركب الحجيجي و البرق النجدي الذي أثار تلك الركائب وهي تستف الفلا، كأنها سفائن تسبح في بحر السراب

4. نجد أرض الوجد:

إن مشهد الركب الساري، ميمما جهة المشرق يستثير لواعج الشاعر باستمرار كما يستثيرها البرق النجدي و الرياح الحجازية، فهو غالبا ما يبدأ قصائده بمثل هذا العامل المثير لذكرياته وأشجانه إلى أرض نجد و الحجاز، أرض الهوى.

تألق نجديـــــا فأذكرني نجدا وهاج لي الشوق المبرح و الوجدا

إن قراءة هذا النصوص من الشعر الديني لابن الخطيب تشعر القارىء بهذا الانجذاب القوي المستقطب لكل حواس الشاعر، نحو تلك الأماكن المشرقية حيث يعددها واحدة تلوى الأخرى محصيا نباتها كالشيح و البان و الرند، مستلذا تكرارها متخيلا أنه عاش فعلا في تلك الأماكن ثم تغير الزمن وأصبحت أطلالا وهذا ما سبق أن تناولناه في استعارة النص عند ابن الخطيب وتداخل الخطابات و انبهام المشاعر واختلاطها وهذا ما يتضح في القصيدة التالية:

ألم تريانـي كلما هبـــت الصبا أبل بها من نار لوعـــتي الخدا

وأصبوا إلى البرق الحجازي كلما أجلت أكف الأفق في آسيها الزندا

إن الشاعر يعترف أن الحنين إلى العهد القديم لا يجدي وأن ما به من أشواق إلى سعدى ودعد وما هذيانه بنجد و حاجر، سوى رموز وكنايات إلى ما هو أهم إلى القبر المقدس في يثرب.

5. الحنين إلى الشباب:

الحنين إلى الشباب عند ابن الخطيب، كما عند ابن خفاجة، هو حنين إلى متع الحياة بكل مظاهرها وكل مستلزماتها الشباب من لهو، وغزل ومغامرة وقوة.

فإذا رحل الصبا، فقد رحل كل شيىء، وكيف له بالهوى وقد وخط الشيب رأسه وقام فوق منبر رأسه خطيبا، منذرا كما في القصيدة البائية:

رحل الصبا فطرحت في أعـقابه ما كان من غزل ومن تشبيـب

أترى التغزل، بعد أن رحل الصبا شأني الغداة أو النسيب نسيـبي

أني لمثلي بالهوى، من بعــدم للوخط في الفودين أي دبيـــب

لبس البياض، وحل ذروة مـنبر مني ووالى الوعظ فعل الخطيب

لقد كان يستره ظلام الشبيبة في الماضي وأصبح يفضحه صباح المشيب في الحاضر، إنه الزمن في تقلبه وتعاوره وتعاقبه يبلي كل جديد ويحول كل شيىء إلى نقيضه نفس الرؤية التي لمسناها عند كل من ابن دراج وابن خاتمة.

وفي نفس السياق هذه القصيدة الحنينية التي نظنها الشاعر يتذكر عهد الشباب ويحن إلى نضارة الحداثة ومكتب الطفولة، حيث كان يتلقى مبادىء العلم الأولى:

تذكرت عهدا للشباب الذي ولـــى فطاب له تسكاب دمعي وانهلا

إذا العيش غض، و الشبيبة روضة أزهرها تجني وأنـــوارها تجلى

عهود مني ألوى لجدتها المـــدى وقلص من إيناسـها ذلك الظلا

لقد تذكر الشاعر الماضي، ماضي الشباب الذي ولى، فتدفقت المشاعر، وتداعت الذكريات، في غنائية تامة، تلك العهود الصبا الحلوة اللذيذة لإذ العيش غض و الشبيبة روضة، تلك عهود المنى، التي قلص ظلمها الزمان فمضى ذلك الماضي كالحلم في سرعته.

6- مقابل ذاك الحنين الرمزي الطاغي على شعر ابن الخطيب، هناك الحنين الواقعي، إن صح التعبير إلى الزوجة والأهل و البلد(غرناطة)، ومما قاله في هذا الصدد قصيدة له بجبل الفتح وقد طال مقامه به، فتشوق إلى أهله وولده كما تشوق

إلى غرناطة، مقره ومقر الأهل حيث أصبح بعيدا عن دار النعيم يعاني بحرين: بحر العدا و بحر الماء الأجاج:

تنائيت عن دار النـــــعيم بشقوتي وأسكنني الرحمن شـــر بـــلاده

أعانيها بحـــــرين: بحرا من العـد له ثبج من بيضـــه وصـــعاده

وبحرا من الماء الأجاج تروعـــنا روائع من أهواله في اشـــتداده

عسى الله يدني ساعة القرب واللقا و يجعل جهدي في سبيل جهاده

ثم في شوق ولهفة يحن إلى غرناطة إلى الزوجة إلى سدة الملك.

عشيات الوادي، ربع الحمراء بالمدينة آهلا متمنيا عودة العهد القديم، كما كان في غرناطة مجتمع الشمل بأهله وولده

رى هل يعود الشمل كيف عهدته ويبلغ قلبي ما اشتهـــى وينـــاله

سقى الله من غرنـــاطة متبـــوئا غماما يروي ساحتيه ســـــجاله

وربع بحمراء المدينة آهـــــــلا أنيطت على بدر السماء حجاله

وغابا، به للملك أشبال ضـــغيه يروي الأعادي باسه و ســباله

هكذا ينحو الشاعر من الجزئي إلى الكلي، من هذا الحنين الواقعي الخاص، يتدرج إلى قمة الحنين المطلق و الشامل، كما تعكسه قصائده الدينية وأشواقه المطلقة إلى الأطلال، والأماكن التاريخية، وهكذا يسمو ابن الخطيب، كالشعراء الصوفية من عالم الواقع إلى عالم الأماكن حيث تتكسر الحدود وتنتفي الأضداد.

الخاتمة

الحنين والغربة فن شعري أصيل يرتبط بالحياة، فهو من الفنون التي تعنى بتصوير جوانب من الحياة، وتكشف عن الكثير من الحقائق التي يغلفها التاريخ، وهي مثال صادق لمرحلة تحمل في طياتها أحداثًا سياسية، وفتنًا داخلية، امتدت إلى أكثر من قرنين ونصف القرن.

و قد يعد الحنين باب قديم في الشعر العربي و قد ضرب فيه الشعراء بسهم وافر يعبر عن عاطفة انسانية صادقة و يرتبط في الاغلب الاعم بمنحة الغربة التي يفارق فيها الانسان وطنه، و اهله و أحبابه لظروف فسرية.

و قد اتسع مفهوم الحنين عند الاندلسيين فشمل بالإضافة الى الحنين الى الوطن و الاهل و الاصدقاء كذلك الحنين الديني الذي برز في قصائد التشوق الى الديار المقدسة، الى مكة المكرمة الى المدينة المنورة، و قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

فحب الاندلسي لوطنه و ارتباطه به جعله يرفض نظرة الاستصغار التي كان يتحسسها و يرفض ذلك المرير الذي كان يعيشه، فانعكست آثار الحنين و الشوق في نتاجه. كما أنه من الشعراء من هاجر هجرة روحية تمثلت في اللجوء الى الله تعالى فانعكست اشعارهم معبرة عن حنينهم. و قد توصل البحث الى النتائج التالية:

1. أن الشاعر الأندلسي لم يقتصر على الحنين الى مسقط رأسه و منشأ طفولته و ذكريات صباه بل تعداه الى مدن أسهمت قي تكوين شخصيته الاسلامية و ثقافته الدينية، كالحنين مثلا الى الديار المقدسة و الى ساكنها صلوات الله و سلامه عليه، و غيرها من الديار الحجازية التي تعفو نفس كل مؤمن لذكرها، حيث ظهر ذلك واضحا عند أكثر الشعراء.

2. كشفت النصوص ايضا عن موضوع آخر لا يقل أهمية عن موضوعات الحنين الاخرى و هو الحنين الديني، الذي توسعت دائرة موضوعة بسبب الأحداث المريرة التي تعرضت لها الأندلس.

3. نتيجة شعور الاندلسي بضياع وطنه و ما حل به من الفتن و الدمار لم يجد له ملجأ و ملاذا سوى التضرع الى الله و رسوله صلى الله عليه و سلم.

4. هذا الحنين الذي امتلك الاندلسيين جعل شعرهم يحتوي على قدر كبير من العناصر العاطفية، و الملامح الذاتية.

5. شعر الحنين الديني امتاز بوضوح المعنى و عمقه، و قد استمد الشاعر الاندلسي الكثير من افكاره و معانيه من خلال الروافد العربية الاسلامية كالقرآن الكريم.

6. استخدام الشاعر الاندلسي لأنواع الصور البارزة في هذا الغرض، منها الصورة المباشرة و البيانية في شعر الحنين، و استخدما كذلك المحسنات البديعية.

قائمة المصادر و المراجع

1. بوقرورة، عمر، الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، باتنة، الجزائر. مركز منشورات جامعة باتنة، انجز طبعة على مطابع عمار قرفي.

2. السعيد قوراري، الحنين الى الديار المقدسة في الشعر الأندلسي، شهادة ماجستير، كلية الآداب و العلوم الانسانية و الاجتماعية، قسم اللغة العربية و آدابها تخصص أدب عربي قديم، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2011/2010.

3. فاطمة طحطح، الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي(أطروحة)، كلية الآداب بالرباط، ط الأولى، 1993.

4. فتيحة دخموش، تجربة الغربة و الحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي، شهادة ماجستير، كلية الآداب و اللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، بدون سنة.

5. المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس، ج01.

ملخص

تهدف دراستنا هذه الى دراسة شعر الغربة و الحنين في الأندلس ، للأستاذة فاطمة طحطح لكتاب جرت فيه صاحبته مجرى غير معتاد، ذلك أنها تناولت فيه هذا الشعر بالدرس و التحليل عبر حقبة مختلفة بمنظور يجمع ما بين الغرضية بمفهومها القديم و البين الموضوعة بمعناها الحديث.

و كان هدفها ابراز كيفية نمو الغربة نص الغربة و الحنين اعتمادا على مكونات أسلوبية، و ابراز جماليته الفنية، باعتبار أن الحنين يتضمن بالقوة - حسب المناطقة- الزمان و المكان.

الكلمات المفتاحية: الغربة، الحنين، الشعر، الأندلس

Résumé

Cette étude vise à étudier la poésie de l'aliénation et de la nostalgie en Andalousie, par le professeur Fatima Tahtah pour un livre dans lequel sa compagne a suivi un cours inhabituel, car elle a traité cette poésie par l'étude et l'analyse à travers une époque différente avec une perspective qui combine le but dans son ancien concept et l'établi dans son sens moderne.

Son objectif était de mettre en évidence comment le texte de l'éloignement et de la nostalgie se développe en fonction de composants stylistiques, et de mettre en évidence son esthétique artistique, étant donné que la nostalgie inclut la force - selon la logique - le temps et le lieu.

Summary

This study aims to study the poetry of alienation and nostalgia in Andalusia, by Professor Fatima Tahtah for a book in which her companion took an unusual course, as she dealt with this poetry by study and analysis through a different era with a perspective that combines the purpose in its ancient concept and the established in its modern sense.

Its aim was to highlight how the text of estrangement and nostalgia grows based on stylistic components, and to highlight its artistic aesthetic, given that nostalgia includes force - according to logic - time and place.